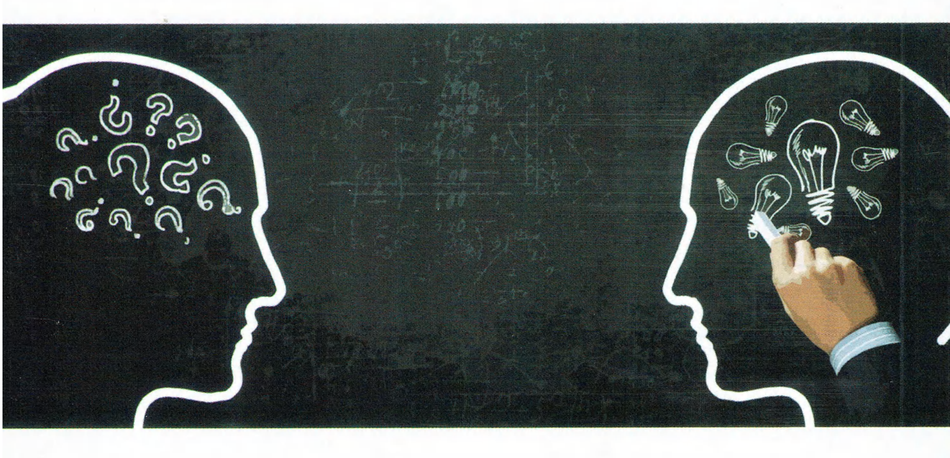
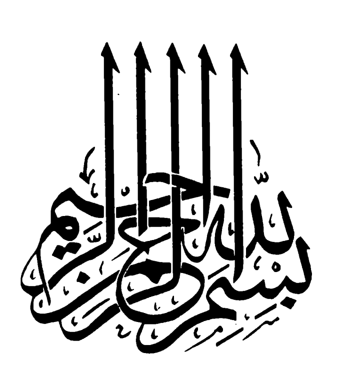


الإلحاد..
فرضية في أزمة



أحمد محمد بلقيس

الإلحاد..
فرضية في أزمة



الإلحاد.. فرضية في أزمة

تأليف:

أحمد محمد بلقيس



الإلحاد.. فرضية في أزمة

أحمد محمد بلقيس

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز»



Business center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith,
London W6 9DX, UK

www. Takween-center.com
info@Takween-center.com

تصميم الغلاف :



+966 5 03 802 799
المملكة العربية السعودية – الخبر
eyadmousa@gmail.com

إهداء..

لكلِّ أحد... ☺

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٩
الإلحاد.. فرضية في أزمة	١١
الإلحاد.. فرضية في أزمة	٢١
لا شيء؛ فالأمر ليس مهمًّا!	٣١
الهروب الكبير... إلى النفعية والمجهول!	٣٩
الإلحاد فرضية ولدت ميتة	٤١
العلم التجريبي: أخرس يزأر!	٤٥
أزمة الإلحاد الجديد	٥٣
الإلحاد الجديد.. ثورة فرنسية من جديد	٦١
سؤال النشأة	٦٥
معضلة الأخلاق	٧١
محور الأخلاق هو الجواب عن سؤال: ماذا أفعل؟	٧٥
أفول الإلحاد وإخماد الثورة	٨٧
«لا يوجد ملاحدة في الخنادق»!	٩٧

الموضوع	الصفحة
خاتمة	١٠١
الملحق (١)	١٠٣
حتى لا يكون خطابنا الديني في أزمة	١٠٥
الملحق (٢)	١٢٣
التوظيف الإلحادي لنظريات العلم الطبيعي	١٢٧
التوظيف الإلحادي لنظرية التطور الداروينية	١٣١
درء تعارض العلم الطبيعي والدّين الإسلامي	١٣٩
هل قتل العلم الإيمان بوجود الله؟!	١٤٥
خاتمة	١٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إلى ابني الحبيب أحمد بلقيس:

إنه لمن دواعي سروري واعتزازي أن أرى إنجاز كتابك الثاني هذا، بعد أن أصدرت كتابك الأول: ابن تيمية الصوفي، الذي تصفحته بشغفٍ واهتمامٍ؛ لما فيه من جزالة الطرح ونضوج الفكر.

وأرجو أن تواصل المسير، وأن يمدَّك الله بكل أسباب النجاح في إعلاء كلمته وترسيخ الإيمان بدينه الحنيف.

وكتابك هذا عن الإلحاد، يخوض في بحر عميق، ويحلق في فضاء سحيق ليس له نهاية، وأرجو أن يجد فيه القارئ ضالَّته، وأجوبة لأسئلة محيِّرة وعلامات واضحة؛ تنير الطريق، وتزيل الشك، وتعمق الإيمان بالله وحده ﷻ.

والإلحاد ليس وليد الساعة، ولا نتاج هذا العصر، رغم كل المتغيرات التي حدثت، ومظاهر الضعف والهوان التي تنتاب الأمة الإسلامية على كافة الأصعدة، مما يفقد الشباب

بوجهٍ خاص إحساسَهم بعظمة دينهم، فينظرون إلى تقدم الغرب والشرق، بإجلال وانبهار، مما يمهِّد لتلقي الأفكار من تلك الجهات، ويمهّد لضعف الإيمان والشك في الدين ومقوماته، وينتهي إلى حدِّ الإلحاد.

لقد كان الإلحاد ـ دائمًا ـ طريقًا مظلمًا في حقيقته، رغم ما يبدو لمعتنقيه من أوهامٍ لا أساس لها، ورغم سلوك الكثيرين ممن تاهت بهم الخطى واخترقت عقولَهم أفكارٌ وفلسفات مسمومة، ما استطاعوا أن ينفكوا منها، فغيبوا المنطق وادعوا اتباعه، وأقفلوا القلوب واتبعوا الأكاذيب وساروا وراء الأوهام.

إن شاء الله وقدّر، سَيُشِعُّ هذا الكتاب نورًا وضياء، وسيكون فيه ما يروي ظمأ الظامئين للحق المطلق والاهتداء الراسخ إلى الواحد الأحد.

وفقك الله لما يحبه ويرضاه.

كتبه

والدي الحبيب، الخبير الهندسي

محمد علي بلقيس

بسم الله الرحمن الرحيم

الإلحاد.. فرضية في أزمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، هدىً وذكرى لأولي الألباب، وزانه بالأحرف السبعة وكمال الشرعة وفصل الخطاب، وصانه من شَيْنِ اللحن وطروء المحو ومن كل ما يستراب، وجعله آية الباقية على امتداد الأحقاب، ووعد بكشف ما يشهد لحقيّته من كل باب، مصداقًا لقوله المجيد: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

وصلاة ربي وسلامه على من تلقى الوحيَ من ربه قرآنًا، وتنزل إليه فرقانًا، وجمع بين يديه كتابًا وديوانًا، وبيَّن بسُنَّته وسيرته فجاء تبيانًا، ووفى بحقوقه، حتى استوى على سوقه وسعدت الدنيا بأنوار شروقه، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن النازلة الإلحادية هي نازلة قديمة متجددة، وبالنظر إلى الإلحاد من زاوية أخرى نجد أنه يتشكل بصورتين:

الأولى: الإلحاد بكونه حالةً فرديةً، ونعني بهذه الحالة الفردية: أنها حالة من الحالات الفكرية تنشأ بسبب عواملَ متعددةٍ تدفع الشخص لاستبعاد فكرة وجود الإلٰه من المشهد الفكري أو إنكاره، إما كليًّا أو أغلبيًّا، فإما أن ينكر وجود الله بالكلية، فيجزم بأنه لا إلٰه، وإما أن يرجح كفة العدم دون جزم، وعلى كل حال فإن كلا الطريقين يؤديان إلى اعتناق الإلحاد كعقيدة والدفاح عنها والاستدلال لها.

الثانية: وهو بالنظر إلى الإلحاد بكونه منظومة فكرية، ونعني بهذا: أن الإلحاد هنا يقوم بمحاولة استبدال المنظومة الفكرية الدينية وإحلال المنظومة الفكرية الإلحادية محلها للإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى، وهذه الصورة هي الأخطر بلا شك، وإن كان الإلحاد بالاعتبار الفردي يموت بموت الشخص، إلا أنه وباعتباره المنظومي يجب أن يتمَّ فحصه فحصًا دقيقًا للحكم عليه؛ بل وإقناع معتنقه ـ المجتمع الفكري ـ بعدم صلاحيته للاستهلاك.

في هذا الكتاب، سأحاول أن ألقي الضوء على إشكالية لم تُطرَق كثيرًا، وهي الإشكالية الإلحادية الأصولية؛ أي:

بالنظر إلى أهمية الإلحاد في تغذية العقل البشري، وهل استطاع الإلحاد أن يقدم أجوبة عن أهم الأسئلة التي تطرح في النطاق الفكري الإنساني؟

لا شكَّ أن أهمية هذا الموضوع تكمن في أن أي منظومة لا تقوم على أسسٍ ومبادئ ظاهرة، تعتبر منظومة خاوية قابلة للتَّشَظِّي والتفتت تحت أي عامل من العوامل، بمعنى: أن هذه المنظومة عندها قابلية الأفول فور اختفاء المؤثرات والمحفزات التي جفزتها للظهور، وبالنظر إلى تركيبة المنظومة الإلحادية ينشأ عندنا اعتقاد بما لا يجعل مجالًا للشك، أن الإلحاد هو منظومة فارغة كذاك العجل الذي له خوار، فارغ من داخله، مفزع في صوته مخيف.

سؤال النشأة، الوجود، الغاية، الأخلاق، كلها محاور إنسانية عميقة لا يمكن الإجابة عليها بالتلفيق؛ بل يجب اتخاذ منهج متسق غير عشوائي، مهْمَا بدى هذا العشوائي مبدعًا كالاصطفاء الطبيعي المزعوم، فهذه الأسئلة هي الضمانة لاستمرار الحياة الإنسانية ووصولها إلى بر الأمان.

فكرت لوهلةٍ في خضم هذه التجاذبات الفكرية، ما الذي يكمن خلف هذه الثقة التي تنطلق منها المنظومة الإلحادية، ما هي الأصول والثوابت، ما الذي يراه الإلحاد أنه يستحق كل هذا العناء للقتال وإثبات الوجود؟!

فكان هذا الكتاب؛ فهو لا يهدف للإجابة إلا على سؤال واحد: هل المنظومة الفكرية الإلحادية هي منظومة حقيقة بالاكتراث؟ أم أنها فرضية في أزمة؟

ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لمركز تكوين على أن أتاح لي فرصة الانضمام إلى ركب النبلاء، أولئك الذين يجاهدون في الخفاء، ويصلون الليل بالنهار للدفاع عن بيضة الإيمان.

وبالتقدير من مركز المشاعر والأحاسيس والوجدان، إلى كل من أعانني بكلمة أو دعاء، أو فائدة استفدتها منه بعلمه أو لا.

وإلى والديَّ ـ حفظهما الله ـ والجسد عنهما مبعد منذ سنوات والروح بهما معلقة، ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤].. رب اجمعني بهما عاجلًا غير آجل.

أحمد محمد بلقيس

بيروت ـ لبنان

٢٠/ شعبان/ ١٤٣٨هـ

١٦/ ٥/ ٢٠١٧م

في سياق الانبعاث الإسلامي المشرق في التصدي لظاهرة نقد الدين بكل أشكالها في العالم الإسلامي، تتوالى البحوث والندوات من كلِّ حدبٍ وصوب، تأصيلًا للأدلة المثبتة لأصول الإسلام وجمعًا للبراهين الْمُعَمِّقَّةِ لصحته والقناعة به، ورصدًا لشبهات المشككين وتحليلها وتفكيكها بأنواع من الأدوات النقدية والمسالك التقويضية.

وفي سياق النقد والتقويض، يأتي كتاب: (الإلحاد.. فرضية في أزمة) ليكشف عن أنواع من الخلل المعرفي في الحركة الإلحادية، وصنوف من الانزلاقات الفكرية في العقلية الإلحادية، وأثبت بأن الإلحاد يعيش في حالة من العجز الدائم على تقديم ما يمكن أن ينفع الإنسان أو يسعده في حياته، وأنه لا يقع في أزمة إلا ويزداد وقوعًا في أزمات بعد أزمات.

الشيخ الدكتور/ سلطان العميري

مع بدء اهتمامي بالظاهرة الإلحادية خضتُ تجربة الحوار والنقاش مع عدد غير قليل من الشباب المتأثرين بتمدد ما بات يُعرف «بالإلحاد الجديد». ومما كان يفجؤني في كل مرةٍ عدم وعي أولئك الشباب بالضريبة الباهظة التي يحتاج المرء لدفعها متى ما اختار لنفسه الإلحاد هويةً، ضريبة يضطر لأجلها أن يتنازل عن جميع المكونات المميزة له كإنسان. فمع اللحظة التي يختار فيها المرء الإلحاد فسيلزمه من الناحية النظرية التنازل عن المكون المعرفي إذ الإلحاد لا يوفر لصاحبه القاعدة الفلسفية التي يمكنه من خلالها أن يؤسس لأي لونٍ من المعرفة، وقل الأمر نفسه بالنسبة للقيم والأخلاق. أما تلك الأسئلة الإنسانية العميقة: من أين جئنا؟ وإلى أين المصير؟ وما الغاية من وجودنا؟ فأسئلة لا معنى لها بتاتًا في ظل الرؤية الإلحادية، إن الإنسان لا يعدو أن يكون صدفة بيولوجية عمياء، فما الذي يعطيه قيمةً أو امتيازًا على أي كائن بيولوجي آخر؟! إنه كما عبر أحدهم: مجرد وسخ كيميائي، يعيش على كوكب حقير في مجرة هائلة.

ويأتي كتاب الصديق الأستاذ «أحمد بلقيس» هذا ليكشف في خلاصات مكثفة عن حجم اهتراء البنية

الإلحادية، وأنه في الحقيقة مجرد تيار هدمي لا يمكنه أن يقدم أي رؤية بنائية، إنه التيار الذي شكل بحقٍّ القاعدة التي أفرزت لنا التيارات العدمية والفوضوية والعبثية. إن الإلحاد باختصار كما عبر الصديق أحمد «فرضية في أزمة»، بل أزمة الإلحاد أزمة عميقة لا يمكنه التعافي منها، وأنَّى له التعافي وقد قطع عن الإنسان كل فرص النجاة والهداية بإنكار وجود من بيده الهداية وحده.

الشيخ/ عبد الله العجيري

قد قيل بلا إلٰه.. كل ما فيها مباح، والحق أقول لك:
إن بلا إلٰه لا كل ولا بعض، ولا فيها ما يستباح، لا معنى لفقد أو أنين أو نياح، لا ظلم ولا عدل، ولا جد ولا مزاح؛ بل يصح القول مني: ليس الكلمات عني، هي آثار لحبر رشه رف الجناح، وليس هذا الرف طوعًا إنما هبت رياح، أوقد ناقضت نفسي؟ ثم ماذا؟ أعفني هذا الصياح، ليس هذا اللوث شيئًا أنت نافٍ الإلٰه.

المهندس/ الشيخ ماهر أمير

الإلحاد.. فرضية في أزمة

«قبل أن تطرح السؤال: «هل نظرية التطور صحيحة أم لا؟» عليك أن تسأل السؤال التالي: «هل هي نظرية واضحة بما فيه الكفاية لتكون صحيحة؟» هذا سؤال مختلف جدًّا!

من الأمور السائدة التي أعتقدها بخصوص هذه النظرية يتلخص في الآتي: «يا هذا، إن الأمر لا يعدو أن يكون فوضى! إنه يشبه النظر من خلال غرفة مليئة بالدخان!».

لا شيء في هذه النظرية معرَّف بشكل واضح أو محدد؛ لأنها تفتقر إلى كل الدقة التي يتوقعها أحدهم في الفيزياء الرياضية، كما أنها أيضًا تفتقر إلى كل الدقة المتوقعة في الرياضيات، لذلك إنا نتحدث عن الأخذ بيد الوعي والفكر للهبوط إلى مستوى علم الأحياء التطوري».

ديفيد برلنسكي

Room full of fog[1]

يمكننا أن نبدأ بهذا السؤال، هل الإلحاد واضح بشكل كافٍ ليتم التسليم به وقبوله كمنظومة وبناء فكري متماسك؟ هذا السؤال يحتاج جرأة للإجابة عليه، بطبيعة الحال إذا نظرنا إلى التسلسل التاريخي للأفكار الإلحادية سنجد أن الإلحاد في بداياته بدا شرسًا، يرفض أي تشكيك فيه كأشرس ما يدافع به عن عقيدة ما، لا مجال للتشكيك في هذه العقيدة، فهي مبنية على أصول متينة وراسخة، «الدين وهم». . «الإله وهم»، «الإلحاد أوضح من شمس نهار»!

في خضم هذا الخطاب الحماسي، يصطدم الإلحاد مع أمر مهم جدًّا، لم يتنبه إليه إلا قريبًا، وهو أن الوثوقية ينبغي أن تظهر معها قوة الأرضية التي تستند إليها؛ بمعنى: أن على

(١) غرفة مليئة بالضباب، يستخدم هذا التعبير للدلالة على عدم وضوح الرؤية الفكرية.

الإلحاد أن يظهر قدرة على إيضاح نفسه وإيضاح أصوله التي يستند عليها، الأمر الذي شكَّل أزمة دفعت إلى عملية إعادة هيكلة للإلحاد؛ لتنقسم هذه المنظومة وتَتَشَطَّرَ وتَتَشَظَّى، وينشأ عنها مكونات جديدة متضاربة ومتعارضة، أثرت وتأثرت بالمحيط الفكري المعاصر، هذا الانقلاب الفكريُّ خَلَقَ أيضًا غرفة من الضباب أحاطت بالإلحاد الجديد.

لذلك؛ إذا أعدنا طرح سؤال ديفيد بيرلنسكي: هل الإلحاد واضح بشكل كافٍ ليتم التسليم به؟ سنجد أن الجواب على هذا السؤال يحتاج لإعادة قراءة الإلحاد قراءة أصولية؛ أي: من حيث الأصول التي يستند إليها الإلحاد، هل الإلحاد قائم على أصول مركزية تبيِّن لنا الخطوط العريضة التي تحيط به كاعتقاد سائد في دوائرَ فكريةٍ معينة؟ وقد يسأل السائل: ما أهمية هذا السؤال؟

والجواب هو: لأن العقل يبحث دائمًا على الاستقرار للانطلاق إلى التحليل والتطوير، لا يمكن للعقل أن يتعايش مع أفكار سائلة، لحظية، وغير مستقرة، وينطلق منها للوصول إلى الحقائق، لذلك سؤال أصول الأفكار هو من الأسئلة المركزية التي ينبغي أن تبقى حاضرة على طاولة النقاش، وينبغي أن يكون الجواب حاضرًا أيضًا بطبيعة الحال.

مثلًا: ما الذي يجعل تناول الحركات القتالية بالنقد سهل المنال، ولا يجد أحد من الباحثين صعوبة في تحليل

العقلية القتالية؟ ليس ذلك إلا لتصلب أصول هذا الفكر ووضوح أصوله وبواعث أفكاره، بينما لو ألقينا نظرة على الجماعات الباطنية، فسنجد أن تحليل مثل هذه الأفكار أشبه بالتحليل الهوائي؛ إذ إنها تتمتع بمساحة ضخمة جدًّا من الجهالة في معرفة دوافعها، واكتشاف هذه الدوافع والأصول التي تستند عليها مثل هذه الجماعات الباطنية هو أشبه بحلٍّ معضلة من المعضلات أو اكتشاف سر الأسرار!

نعود للإلحاد، فنجد أن الإلحاد أشبه ما يكون بظواهر لحظية، وتفاعلات بافلوفية[1] تفتقر إلى شرط خاص ومؤثرات معينة تفعل هذه الظاهرة؛ بمعنى: أن الإلحاد لا يملك أيَّ قضايا مركزية تشكّل فكرًا واضحًا يمكن أن يعزز من قيمة الإلحاد.

قد يُعد هذا الكلام مجازفة للوهلة الأولى، فكيف للإلحاد الذي يحمل مجموعة من القضايا يتحدث عنها ليل نهار؛ كالداروينية، والعلوم التجريبية، ونسف الدين، وإسقاط الإله، وغيرها من الأفكار التي تُعد «مركزية»، كيف لنا أن نَصِفَهُ بعد ذلك بأنه مجرد ظواهر لحظية لا تملك قضايا مركزية تنافح عنها وتشكل الصورة وَالْأُطُرَ الأساسية للأطروحة الإلحادية.

---

(١) الاستجابة الشرطية، نظرية تنسب إلى إيفان بافلوف، وهو طبيب روسي وعالم متخصص في علم وظائف الأعضاء.

لا بأس، دَعُونا نبحث عن شيء مهمٍّ الآن، ما الذي يدفع ملحدًا إلى المنافحة عن هذه القضايا المذكورة وغيرها؟

يتلخص الجواب على هذا السؤال بأنها الاستجابة لبعض الحاجات النفسية؛ كحب التحرر من وهم المقيدات[1]، وكمحاولة تفريغ التَّشَنُّجَاتِ العصبية الناشئة عن بعض الْعُقَدِ النفسية، وغير ذلك من الإشكاليات والدوافع النفسية التي تدفع بالملحد لاتخاذ الإلحاد ديانة له. لا يمكن للإلحاد أن يثبت قضية فلسفية تساند ما يذهب إليه أبدًا؛ لذلك هذه الدوافع كلها تغطى بمثل هذه القضايا اللحظية لتضفي عليها مشروعية الدخول في ساحة الجدل الفكرية.

هذه الدوافع النفسية هي التي تدفعنا للقول وبكل وضوحٍ أن الإلحاد لا يمثل إلا ذاك الرجل الذي يبحث عن بعوضةٍ لقتلها في غرفة الضباب، فأخطأ البعوضة وقتل نفسه!

الإلحاد أشبه ما يكون بالرأس العالق في صندوق مظلم؛ بمعنى: أنه محصور من الناحية الفكرية في «زمكان» معين، فهو محصور في أحداث ما قبل الثورة الفرنسية، وفترة الظلمات الكنسية ومحاربتها للعلم والفلسفة آنذاك، من هناك انطلق الإلحاد وعلق، فأصبح يعامل جميع الديانات بذات

---

(١) «إن مرد هذه الأمور، الإلحاد، بشكل أساسي يرجع إلى التقييد الذي سيطال الاستقلال الإنساني بسبب المعتقد الألوهي. يمكن للرغبة في الاستقلال أن تبلغ مبلغًا بعيدًا جدًّا». ألفن بلانتنجا.

الطريقة، بذات القواعد المحدودة التي لا تنطبق إلا على منظومة فكرية واحدة مغلقة، وحتى هذه المنظومة ليست تمثل كل الكنيسة، فَثَمَّةَ تياراتٌ نضالية داخل الكنيسة، وتيارات تجديدية كانت تحارب هذا النوع من الانغلاق والتسلط، فحتى الحِجَاج التي تستخدم ضد منظومة الكنيسة المتسلطة، لا تتعداها لتشمل التيار الكنسي التنويري فضلًا عن أن تشمل باقي الديانات.

هذه الطريقة الحجاجية المتهافتة وإن كانت تستخدم شعار إسقاط فكرة الديانات ككل، ومحاولة إرجاعها إلى أسباب لا يمكن أن نأخذها على محمل الجد: كالتطور الاجتماعي، والعوامل النفسية، فهي لا تستخدم إلا ذات الشعارات الثورية التي كانت تستخدم إبَّانَ الثورة الفرنسية، يمكنني أن أتخيل ريتشارد دوكنز وهو بالملابس الفرنسية يحاول أن يبرهن أن الدِّين هو أصل الشرور! يمكننا أن نلاحظ وبكل وضوح المحاولات الثورية لإسقاط الدين، إنهم يخلقون ثورة ولا يخلقون فكرًا!

في العام ٢٠٠٨م، تم عرض فيلم (Expelled: No intelligence allowed، المطرودون: لا مكان للعباقرة)، وتم تسليط الضوء على ظاهرة من الظواهر الإلحادية الخطيرة، تتلخص في استخدام المحاكم للقضاء على القضايا الفكرية والعلمية، تم شنُّ هجمة شرسة على كل من يحاول التلفظ

بعبارة (المصمم الذكي) داخل الدوائر العلمية، كثير من العلماء التجريبيين تم طردهم من جامعاتهم وإغلاق مراكزهم البحثية، ومنعهم من أي نشاط علمي داخل الجامعات، انتقلت ساحة النقاش العلمي من المختبرات والجامعات إلى المحاكم! هل تلاحظ أمرًا؟ نعم، هي ذات الطريقة التي كانت تعامل الكنيسة بها العلماء في وقتها، محاكم تفتيش.. قتل للمفكرين.. إحراق لكتبهم.. ومنع لأي ممارسة علمية تهدد كيان الكنيسة، إنها كنيسة جديدة مبنية على الاستبداد والتبجح تَتَلَحَّفُ بلحاف العلم!

هذا النوع من أنواع التعامل على طريقة تكميم الأفواه، وإقفال المؤسسات العلمية المناهضة لأي توجه إلحادي، يظهر لنا أن مضمون الإلحاد هو مضمون دوغمائي[(١)]، لا يقوم على أي مقوّم فكري حقيقي، وبذات الوقت يزعم المعصومية واستحالة دَحْضِهِ بأي وجه من الأوجه! وهو يَنُمُّ عن خوف شديد يعتري أركان هذه المنظومة الفكرية المتهافة.

إذن، الإلحاد بهذه المنظومة التي ابتدأ بها، كانت بداية

---

(١) هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشته أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي التشدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو للشك. (ويكيبيديا)

شرسة ووثوقية، لا تسمح بالتشكيك.. بل الانقياد المطلق، والمطلق فقط! الغريب هو: أن هذا الانقياد هو انقياد لمجهول، بمعنى: أن الإلحاد بحدٍّ ذاته يجهل قضيته الأساسية التي ينافح عنها، كل هذا يدفعنا للقول بأن المنظومة الإلحادية اليوم هي منظومة ضبابية لا تظهر إلا ضمن مكونات ومحفزات معينة فقط لا غير.

لا شيء؛ فالأمر ليس مهمًّا!

«إننا جئنا من لا شيء، بلا شيء، لأجل لا شيء»!

كوينتن سميث

جواب اللاشيء هو جواب تلقائي يخرج من ذهن الملحد عند مجابهته بأي سؤال يشكّل أزمة بالنسبة له، ليست المشكلة باللاشيء ولكن المشكلة بمفهوم اللاشيء، مفهوم اللاشيء هو مفهوم متجذّر في العقلية الإلحادية للتخلص من أي عقبة قد تواجه هذه المنظومة.

لنفهم المقصود علينا: أن نستحضر مثالًا ولنستعن بدوكنز قليلًا:

في عام ٢٠١٢م عقدت مناظرة في برنامج (QnA) على قناة (ABC Australia)، بين ريتشارد دوكنز وبين الكاردينال جورج بيل، وكانت مناظرة لطيفة تخللتها بعض المواقف المضحكة.

في معرض الحديث عن سؤال الوجود ومن أين أتينا،

تعرض الكاردينال لنظرية لورنس كراوس وتبني ريتشارد دوكنز لها، والتي تقول بأننا أتينا من لا شيء، أجاب دوكنز قائلًا: «إنك تجادل مفهوم اللاشيء[1]، ولكن الأمر أبسط من ذلك بكثير، ثم يبدأ محاولته في تفسير اللاشيء» هنا يضحك الجمهور؛ فيقول ريتشارد غاضبًا: «لِمَ تجدون هذا مضحكًا؟» فيزداد الضحك، عندها يجيب الكاردينال: «أعتقد أنه من المضحك بعض الشيء أننا نحاول تعريف اللاشيء!» ضحك وتصفيق مرة أخرى، ويعتدل دوكنز في جلسته!

فكرة اللاشيء هنا قد تكون ـ فعلًا ـ بسيطة كما قال دوكنز، ولكن الأمر ليس كذلك؛ فاللاشيء عند الملحد له مفهوم خاص، مفهوم يتجسد بصور مختلفة ويعكس خواء المنظومة الإلحادية من أي فكرة مركزية يحملها. اللاشيء هو التخلص من الأجوبة التي تشكّل أزمة للعقلية الإلحادية؛ فاللاشيء قد يعبّر عنها بعدم الاكتراث، وقد يعبّر عنها بالفجوة العلمية أو ما يعرف بمتلازمة: «نحن لا ندري الآن ولكن من المؤكد أن العلم سيكتشف ذلك لاحقًا» أو «نظرية كل شيء ـ Theory of everything»، وكذلك قد يعبّر عن اللاشيء بالتجاوز عن الأمور التي يراها معقدة، وأيضًا فإن

---

(١) الكاردينال ناقش في مفهوم اللاشيء عند كراوس، والذي عرفه بأنه مزيج من الذرات والفراغ والطاقة.

اللاشيء يسيطر على إجابات الملحدين ويدفعهم إلى الجمع بين المتناقضات.

منشأ هذه الفكرة، هو انسلاخ الملحد عن أي أصول مركزية ينافح عنها أو يناضل من أجلها، هو يريد.. لا أدري حقيقة ما يريده الملحد، فهو في حدِّ ذاته ليست له رؤية، فهو يجرد كل شيء من أي غاية ولو توهمت غايته! يكذب عينيه لينصر اللاشيء، لينصر العدم الفكري والخواء المعرفي، بكل بساطة: الملحد يجرد هذا العالم من سحره عبر «اللاشيء»[1]!

في بدايات هذه المناظرة يطرح الكاردينال معضلة تتمثل في عدم قدرة العلم على الإجابة على الأسئلة الوجودية، يجيب دوكنز: «العلم يعمل على الإجابة عن سؤال السبب الأساسي لوجودنا هنا، لكن سؤال الغاية هو سؤال بلا معنى!»، أضف إلى هذا الجواب إقْرار دوكنز بأن سؤال الوجود هو سؤال محوري ملحٌّ جدًّا ونابع من مكان أشبه ما يكون بالفطرة، ولكن ليس كل الأسئلة الملحة جديرة بالاهتمام!

تذكرني هذه الطريقة في الجواب، بكينج كونج وهو

---

(١) «تجريد العالم من سحره» تعبير يعود إلى عالم الاجتماع ماكس فايبر، ويقصد به تجريد العالم من المعاني الإنسانية أو الدينية أو الثقافية التي يضفيها الإنسان على الكون من حوله. (عبد الله الشهري، ترجمة كتاب: وهم الشيطان ـ ص٦٦)

يتسلق ناطحات السحاب ويبدأ يلوح بيديه يمنة ويسرة ليسقط ما تيسر له منها بلا تفكير!

يبدو أن جواب دوكنز هنا هو جواب على نسق كينج كونج: السؤال ملحّ لكن ليس مهمًّا = انسفه! ما الذي دفع دوكنز لأن يدفع بالجواب الملحّ خارج نطاق الأهمية؟ لا شيء! بل من أعطى لدوكنز الحق في تحييد هذا السؤال الملحّ؟ وما الأسس الفكرية التي دفعته لأن ينحي هذا السؤال؟ لا شيء البتة! إنه مجرد شعور نفسي بأن هذا السؤال يُعد سؤالًا تافهًا!

تعود وتنظر إلى هذه الطريقة، فتجدها طريقة كنسية بامتياز، ليس لأحد الحق في تفسير أي شيء أو النطق بأي شيء، إلا الملحد وما اتخذه من علوم تجريبية مستغلة لصالح «اللاشيء»!

يعود دوكنز ليعرّف لنا بعض التعريفات المتناقضة بلا حمرة خجل أو حياء:

ـ ينطق الكاردينال فيقول: «الانتقاء الطبيعي هو عملية عشوائية».

ـ دوكنز: «لا، هي عملية منتظمة وليست عشوائية».

ـ فيقول الكاردينال: «إذن، أنت تقول أن له غاية؟!»

ـ دوكنز: «لا» (ضحكٌ من الجمهور).

ـ الكاردينال: «هل تستطيع أن تخبرنا ماذا يعني غير عشوائي؟».

ـ دوكنز بوثوقية عالية: «طبعًا أستطيع، هذا عملي في الحياة!» (ضحكٌ وتصفيقٌ من الجمهور).

إذن؛ لننظر ما هو تعريف الـ«غير عشوائي» عند دوكنز، يقول دوكنز: «يوجد لدينا تنوعٌ جينيٌّ عشوائيٌّ، وأيضًا نِسَبُ بقاء وتوالد غير عشوائية، ولأجل ذلك نلاحظ أنه بتوالي الأجيال تصبح مهارات الحيوانات أفضل من التي سبقتها، وهذا الأمر بجوهره غير عشوائي على الإطلاق، وكذلك؛ فإن هذا لا يعني أن هناك غاية مسبقة كما يتم تعلمه في العقائد، مثلًا: تنظر إلى جناح الطائر فتظن وكأن له غاية، وكذلك العين البشرية، وعلى هذا يظهر عبر عملية الانتقاء الطبيعي بأنه ليس هناك غاية بالمعنى المتداول، هناك نوع من الغاية لكن ليس بمفهوم الغاية الإرشادي، الأمر الأكثر أهمية هو أن التطور الدارويني لا يتم بشكل عشوائي!».

ماذا عن البقاء للأصلح؟ أليست غاية لكل مخلوق على وجه الأرض، على حدِّ زعمهم؟ فهذه الأعضاء التي «تبدو بلا غاية» على حدِّ تعبير دوكنز هي في الحقيقة تخدم غاية البقاء للأصلح، ولكن دوكنز هنا يستخدم ذات الأسلوب في القص والتطريز ليناسب الجواب هواه، ينفي الغاية على التعريف

الإنساني التي تضع الإلحاد في مأزق، ويثبت نوعًا من الغاية وهو البقاء للأصلح!

مرة أخرى ما الذي يدفع دوكنز لأن يتعامل مع هذا السؤال بهذه الطريقة؟ إنها الدوغمائية واللاشيئية المعرفية من جديد.

يعود دوكنز ليؤكد هذا المعنى عبر تعامله مع حجة الـ "Fine tuning" أو ما يعرف بالثوابت الكونية، على أنه يتعامل معها انطلاقًا من نقطة الإيمان بأن اللاشيء هو الإله الأكبر والمدبر الأعظم، إنه يستخدم اللاشيء ليحافظ على توازنه في وجه فكرة الخالق!

يقول دوكنز بعد أن طرح سام هاريس سؤالًا عن أصعب سؤال وَجَّهَهُ المؤمنون للملاحدة: إن هذا السؤال ـ الدقة المتناهية أو الثوابت الكونية ـ هو من الأمور المشكلة والتي تحتاج إلى تفسير، ثم يستدرك قائلًا: بأن هذه المعضلة لا تدفعنا أبدًا للقول بوجود «مصمم ذكي»، والسبب يرجع لأن ذلك سيؤدي إلى طرح إشكال آخر وهو أنه يتعين عليك أن تفسر لنا من أين أتى «المصمم الذكي»؟

مرة أخرى ينحي دوكنز على الأساس اللاعلمي واللامعرفي الخاص به أسئلة تطرحها النواتج البحثية، ولكن أليس من المفترض أن العلم لا يستبعد الفرضيات والنظرية،

وأن العلم صامت لا يتكلم! وأليس العلم وظيفته التحقق من صحة الفرضيات فقط؟ فعلى أي أساس علمي قام دوكنز بتنحية هذه الأسئلة! هذا جبن علمي وتهكم بلا دليل ولا برهان.

ربما الأمر الوحيد الذي يمكننا أن نسلِّم به للملاحدة وعلى رأسهم دوكنز هو اتساقهم مع نفيهم للغائية في هذا الكون؛ فالطرح الإلحادي خاوٍ من أي غاية أو أي هدف فكري حقيقي، هو طرح جمع بين المتناقضات، وأنكر الواضحات؛ خدمة للدوافع النفسية التي انطلق منها هذا الإلحاد.

إن هروب الملحد إلى اللاشيء يمكن تفسيره لما يعرف بالـ«باريدوليا» وهي ظاهرة نفسية تدفع الإنسان للاعتقاد بأن أي مؤثر عشوائي مبهم قد يكون أمرًا مهمًّا؛ كتخيل صور الحيوانات على السحاب، أو رؤية وجه رجل على سطح القمر، أو الاعتقاد بأن اللاشيء أنشأ الحياة وأوجدها! إنه يعتقد بأن الغموض الذي يكتنف الكون، كافٍ لسدِّ حاجتنا من الإجابة على هذه الأسئلة الوجودية.

الهروب الكبير... إلى النفعية[1] والمجهول!

إذن، لماذا يهرب الملحد من أي إجابة على مثل هذه الأسئلة التي تهدد كيانه الفكري؟

لأن الجواب على مثل هذه الأسئلة سيقطع الطريق عليه في علاقته مع النفعية والانتفاع، والتي هي موقف يقيس قيمة الأفكار النظرية والقيم العلمية بنتائجها جلبًا للمنافع، والمنفعة التي ينظر إليها الملحد هنا هي منفعة شخصية أنانية قذرة.

إن المعرفة والعلم هنا لا يطلبان لذاتهما ولا يوجد معايير تقيِّمهما، ولكن الذي يجلب المنفعة من ربح أو غيره

---

(١) لا نقصد بالنفعية الفلسفة النفعية التي تبناها كثير من الفلاسفة كجون ستيوارت ميل، ولكننا نقصد بالنفعية هنا ما يتحقق به غرض شخصي ورغبة شخصية عادة ما تكون أنانية، وأيضًا فإن الفلسفة النفعية قد تقدم نفسها على أنها ذات قيمة أخلاقية، بينما تنعدم الرؤية الأخلاقية عند الملاحدة النفعيين الجدد، وسيأتي الحديث عن الفلسفة النفعية بعد قليل.

هو الذي سيكون ذا قيمة، انظر إليهم وهم يقتاتون على مثل هذه الأطروحات، ويقتاتون على الطعن في المقدسات! يبيعون كتبهم، ويربحون من وراء حملاتهم الإعلامية أموالًا طائلة، لذلك؛ فالإيمان بها يقطع طريق الانتفاع على حساب هذه المقدسات.

الإلحاد فرضية ولدت ميتة

سنتجاوز موضوع الأوليات العقلية، وإثبات وجود الله ﷻ، وسننظر في مسألة مهمة، وهو تقييم الإلحاد من حيث كونه فرضية أو نظرية فضلًا عن أن يكون حقيقة، ولكن ينبغي علينا أن نسأل: ما هي الفرضية؟ وكيف تقوم؟

ما الذي نقصده بالفرضية؟

جاء في قاموس كامبريدج ما نصه:

«الفرضية (hypothesis) هي فكرة أو تفسير لشيء ما قائم أو منطلق من حقائقَ معلومةٍ، ولكن لم يتم التحقق منها - أي: الفكرة - والتثبت منها بعد»[1]

إذن، الفرضية هي محاولة لتفسير ظاهرة من الظواهر

---

(١) "an idea or explanation for something that is based on known facts but has not yet been proved:"
http://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/hypothesis

طبقًا واستنادًا إلى حقائقَ متفقٍ عليها؛ بمعنى: أن العالِم ينظر إلى ظاهرة ما، ويحاول أن يبحث عن الصلات بينها وبين الحقائق ليخرج بالسبب المؤثر في هذه الظاهرة، وعادة يُعد الاحتباس الحراري مثالًا جيدًا للفرضيات العلمية.

الملحد يفرغ وسعه ويبذله في سبيل تفسير نشأة الحياة على ظهر البسيطة، والسبب الرئيس في وجودنا هنا، فيفترض ابتداء أن لا إلٰه، ثم يبدأ بالبحث عن أدلة تثبت هذه الفرضية التي طرحها، ولكن ثمة بعض الأمور التي يمارسها الملحد أثناء طرحه لهذه الفرضية، تخرجها عن كونها فرضية، تحتاج إلى تدليل وتثبت إلى التعامل معها على أنها عقيدة مقطوع بصحتها، وهذا بحدٍّ ذاته إشكال منهجي في التعامل مع المعطيات الكونية فضلًا عن الفلسفية.

الفرضية مفتقرة دائمًا إلى التحقق؛ أي: أنه لا يمكن لك أن تتشبث بفرضية ما إن لم تستطع أن تقيم برهانًا علميًّا عليها؛ فإن لم تصمد وجب التخلي عنها، كما يقول هنري بوانكاريه: «كل فرضية تعميم، وبالتالي كانت الفرضية تؤدي دورًا لا ينكره أحد، غير أنه ينبغي ـ دائمًا ـ إخضاعها للتحقق في أسرع وقت ممكن وكلما أمكن ذلك. وغني عن البيان أنها إن لم تصمد لذلك الاختبار وجب التخلي عنها عن طيب خاطر»[1] عفوًا

---

(١) العلم.والفرضية (ص٢٢٦).

بوانكاريه، يبدو أن بيانك لم يكن واضحًا للملحد بشكل كافٍ!

يعترف الملحد بإشكالية ومعضلة تفسير نشأة الكون، وهذه الإشكالية هي ناشئة عن محدودية أدواته المعرفية والفكرية، يعبّر دوكنز عن هذه الإشكالية في مناظرة له مع جون لينوكس: «أَتَفَهَّمُكَ تمامًا، نحن نواجه معضلة ألا وهي السؤال عن نشأة الكون، ولكني أقول: أنه من الأسهل أن نبدأ بشيء بسيط ـ اللاشيء ـ بدلًا من شيء معقد».

حسنًا، هنا يبدأ دوكنز بوضع الحجر الأول لأساس الفرضية الإلحادية في تفسير نشأة الكون، لنحاول تشريح هذه الفرضية التي يطرحها الملحد عن نشأة الحياة والكون وما هو الشيء البسيط الذي يفسر نشأة الكون عوضًا عن المعقد (الإلٰه).

سنجد أن الملحد ليست له رؤية واضحة لهذا الجواب، فهو يرجعه إلى أمور متناقضة:

أولها: الصدفة المتمثلة بالتطور والانتقاء الطبيعي كما يصرح بذلك دوكنز.

وثانيها: اللاشيء كما فعل لورانس وتبنى ذلك دوكنز في كتابه: وهم الإلٰه.

والثالث: اللاأدرية: «نحن لا نعلم لكن هناك الكثير من

العمل الذي يجب علينا إنجازه فالعلم لا يجيب على كل شيء ولا زالت هنالك ثغرات» يقول دوكنز.

مع كون هذه الأجوبة الثلاث التي يتبناها دوكنز متناقضة، ومع كونها تشكِّل لنا رؤية غير واضحة أبدًا عن هذا الجواب، والذي يُعد السؤال المركزي في أي منظومة فكرية مهتمة بالوجود كالمنظومة الإلحادية، إلا أن دوكنز ينطلق منها إلى إنكار وجود الإله بصورة قطعية تمامًا!

هذه الإشكالية التي وقع فيها دوكنز في قَطْعِهِ بما يتنبؤه من نتائج العلم، هي معضلة وإشكالية حقيقة يواجهها في البحث العلمي دائمًا، تجد دوكنز دائم الحديث عن قطعية نظرية التطور، بينما هو لا يستطيع ضرب مثال واحد على صدق هذه النظرية! وكذلك يفعل مع كل ما يعزز مقصده النفعي وكل ما يقتات عليه من أفكار تسمم العلم وتسمم الفكر الإنساني، مرة أخرى يبهرنا دوكنز باستعراض اللاشيئية المعرفية ليؤسس لمعماره الإنساني! أرأيت يستعصي عليه أن يتخلى عن فرضيته؛ لأنها تحقق له النفعية التي يرمي إليها.

وإذا عدنا لأصل فرضية دوكنز التي تبتدأ باللاشيء على اعتباره بسيطًا، علينا أن نطرح سؤالًا مهمًّا: هل فكرة اللاشيء هي فكرة بسيطة بالفعل؟ إن مجرد محاولة تصور العلاقة بين كون اللاشيء سببًا لظهور الأشياء، هو تصور مخيف!

العلم التجريبي: أخرس يزأر!

في برنامج (أصل الشرور ـ الجزء الأول) يتحدث دوكنز عن سبب التطرف الديني، وأنه متورط في أكثر الصراعات مرارًا واستمرارًا، ثم ذكر بأن الذين يتخذون القرار في الأوساط الدينية هم نفعيُّون بالدرجة الأولى، ولو أن الدين نافع لهم لما دافعوا عنه!

المضحك في الأمر أن ذات النموذج الذي ينتقده دوكنز هو نموذج إلحادي تمامًا، بمعنى: لو جئت بملحد ومؤمن، وسألت كُلًّا منهما: ما الدافع لاعتناق هذه الأفكار، ماذا سيكون جواب الملحد حينئذٍ؟ جوابه سيكون نفعيًّا بحتًا، وجواب المؤمن سيكون جوابًا فلسفيًّا! الذي يؤكد هذا أكثر أن الأديان لديها القدرة على التعايش مع ظروف قسوة الطبيعة ـ إن صح التعبير ـ وتقديم المبررات المنطقية لوجودها، بينما يكتفي الملحد بهز الأكتاف وإنزال سخطه على الرب! فهذا

المثال الذي قدَّمه دوكنز ينطبق على العقلية الإلحادية النفعية، انظر إلى دوكنز وهو يقتات على سبِّ الدين والرب وينتفع من كتاباته الإلحادية على ما فيها من ابتذال فلسفي! من هو النفعي الآن؟

هذه الفجوات المعرفية التي وقع فيها دوكنز ويقع فيها الملاحدة التي تنطلق من اللاشيئية المعرفية، تقوم أساسًا على إشكالية في التعامل مع الأدوات العلمية والمعرفية الإنسانية، انظر إلى دوكنز وهو يعبِّر لنا هذه الإشكالية: «لا ينبغي علينا أن نفقد الأمل في التوصل إلى تفسير أفضل من الفيزياء، تفسير لا تقل قوته عن الداروينية في علم الأحياء».

هذا الدافع يتلخص في محرك واحد وهو أن دوكنز وغيره من الملاحدة لا يتعاملون مع العلم على أنه علم تجريبي صامت، يأتي بالنتائج ولا يتكلم، علم همّه الأول والأخير التحقق من صدق الادعاءات التجريبية والعلمية؛ بل يتعاملون معه على أنه عقيدة إيمانية اعتنقها الملحد ونافح عنها ولوى أعناق الوقائع والأحداث لصالحها خدمة للنفعية التي تتغلغل في أعماق عقله، فتجده يصف بعض الوقائع العلمية والنظريات التجريبية ليستنتج منها ما يحلم به من دفن الدين وقتل الإله، وهذه الطريقة المبتذلة لا تمتُّ للعلم بصلة، ولذلك يقول هنري بوانكاريه: «نحن ننشئ العلم انطلاقًا من الوقائع كما نبني منزلًا من الحجارة، كما أن

تكديس الوقائع لا يكون علمًا، إلا على قدر ما يكون ركام الحجارة علمًا»!

انظر إلى الملحد وهو يبرع في عرض نظريات العلوم، التطور.. الداروينية.. الانفجار العظيم.. إلخ إلخ، ويكدسها مع بعضها تكديسًا على نحو مبهر، ثم بعد ذلك يشير إليها بكل ثقة ويقول: أرأيت لا إلٰه ولا رب، لا حساب ولا دين!

إن إشكالية المساحة الفكرية التي تناقش فيها هذه الفرضية هي إشكالية جوهرية، فطرح هكذا فرضية يجب أن يكون في مجال يصلح للمناقشة فيه، فلا يصح أبدًا أن تطرح فرضية فيزيائية في مجال أحيائي مثلًا، أو فرضية فلسفية تناقشها على ضوء القواعد الكيميائية! يجب أن تحدد مجال الفرضية وتتعامل معها على ضوء مجالها المحدد لها.

هنا نجد أن الملحد عندما يطرح هذه الفكرة فهو يطرحها في غير ملعبها، فهو يريد أن يناقش الفلسفة مع أخرس أصم أعمى، وهذه صفات العلم التجريبي، لا يمكنك أن تغصبه على قول رأيه، فهو لا يفهم ذلك! العلم التجريبي صامت لا يتكلم ولا يدلي برأيه في مسألة وجودية، فطبيعته طبيعة كاشفة للوقائع والأحداث؛ فيأتي الملحد ليزج بهذه المسألة الفلسفية ويحتج بهذا العلم الذي لا يقدر على

الكلام، ويتناسى أن العلم التجريبي فاحص للأشياء والوقائع!

يكشف لنا دوكنز عن الوجه الأيدلوجي والعقدي في استخدام الملحدين للعلوم التجريبية فيقول: «الكتاب يهدف إلى إعطاء المعلومة، ولكنه يهدف أيضًا إلى الإقناع» هنا يتحدث عن كتاب صانع الساعات الأعمى، الذي من المفترض أن يشرح نظرية التطور؛ فإذا به يقصد إقناع القارئ بصدفية الوجود والمخلوقات، بل والحديث عن الأمور الأخلاقية! تبجح.

هذه الأزمة استدركها دوكنز فقال: «ليس من شأن العلم التجريبي أن يسلط الضوء على المشاكل الأخلاقية، ولكني أظن أنه يستطيع أن يفعل شيئًا في بعض الأوقات» ثم يذكر بعض الأمثلة عن الإجهاض، ويقول بعدها: «فهذه طريقة تفكير علمية، إنها ليست العلم بذاته، هي فلسفة أخلاقية، ولكنها أيضًا نوع من التفكير العلمي، ولكن أظن أن الحقائق العلمية يمكن أن تضيء النقاش الأخلاقي» تحدث دوكنز أيضًا عن الجنين والبقرة، وكيف أن الجنين الذي يمتلك جهازًا عصبيًّا أصغر من البقرة، يعتبر إجهاضه غير أخلاقي بينما ذبح البقرة يعتبر أمرًا أخلاقيًّا، وبدأ يحاول أن يفسر ذلك بكلام غير واضح عن كيفية مساعدة العلم في فهم ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي في هذا الصدد[1]

---

(١) https://www.youtube.com/watch?v=O1AlRXlF8DA

يمكننا أن نسأل دوكنز إذن: متى يعتبر استخدام هذا الأسلوب صوابًا، ومتى يعتبر خطأً؟ بمعنى: يُوَجَّهُ سؤال لدوكنز عن «لماذا نحن هنا؟» فيقول دوكنز: «لماذا تظن بأن لديك الحق أن تسأل هذا سؤال! ليس سؤالًا ذا معنى إلا إذا خصصت ما تريد الوصول إليه... هذا سؤال سخيف»[1]

مرة أخرى، ما القاعدة التي بنى عليها دوكنز تسخيفه لهذا السؤال، مع أنه سؤال ملحّ جدًّا ويخرج من طبيعة الإنسان[2]، ولكن أليس السؤال عن السببية والغاية هو سؤال فلسفي كما يقول بوبر؟ إذن فكيف يجعل دوكنز العلم التجريبي حاكمًا على الحقل المعرفي الفلسفي، مع التسليم بعجز العلم عن النطق أو أخذ موقف فلسفي ما؟ بمعنى كيف له أن يحكم على هذا السؤال بأنه سخيف انطلاقًا من معطيات تجريبية بحتة؟

علينا أن نسلِّم بأمر مهم جدًّا، وهو أن أي تفسير للمسائل الوجودية من علة الوجود وسببها، والغائية والأخلاق، لا يمكن الإجابة عنها خارج نطاق الفلسفة

---

(١) https://www.youtube.com/watch?v=u3wn9Ykvb-U

(٢) أجاب دوكنز عن هذا ـ أن السؤال عن علة الوجود من طبيعة الإنسان ـ فقال: «من طبيعة الإنسان أيضًا أن يسأل أسئلة سخيفة»!

يصعب أن يأخذ الملحد سؤالًا محوريًا وجوديًا على محمل الجد.

والدين؛ لأنه ببساطة: ليس من شأن العلم الطبيعي الإجابة على مثل هذه الأسئلة، وإن ادعي ذلك فهو وهم؛ بل سيكون الجواب منطلقًا من فلسفة ممزوجة بشيء من العلم الطبيعي، أما أن يجيب العلم الطبيعي على مثل هذه الأسئلة متجردًا عن الفلسفة فهذا من ضروب الخيال، «الصورة التي يقدمها العلم عن الواقع حولي هي صورة ناقصة جدًّا.. إنه ـ العلم الطبيعي ـ لا يتكلم ببنت شفة عن الأحمر والأزرق، الحلو والمر، الألم واللذة، إنه لا يعرف شيئًا عن الجميل والقبيح، عن الحسن والسيئ، عن الله والخلود؛ يتظاهر العلم أحيانًا بأنه يجيب على أسئلة في هذه المجالات، ولكن غالبًا ما تكون إجاباته سخيفة للغاية إلى درجة أننا لا نميل إلى أخذها على محمل الجد». إروين شرودنجر.

إذن؛ إشكالية دوكنز هي إشكالية في التعامل مع أبجديات العلم وفلسفته، هو فقط يحدد متى يكون السؤال جديرًا بأن يطرح أو لا، يقول ديفيد برلنسكي واصفًا هذه الحالة: «حين يتساءل إنسان عن سبب قصر أيامه وامتلائها بالمعاناة فإنه في ابتغاء الجواب لا يميل بطبعه لنظرية الحقل الكمومي الجبري[1] إن الأجوبة التي قدمها أساطين العلم الطبيعي ضحلة بشكل لافت. لقد حظيت الفرضية القائلة بأننا

(١) نظرية فيزيائية تعالج بعض الإشكاليات المرتبطة بالكم ـ أصغر كمية ـ والطاقة والحقل الفيزيائي.

لسنا أكثر من صدفة كونية بقبول واسع في الأوساط العلمية... إنها عقيدة إيمانية تدفعها ثقة بني الإنسان في قناعتهم بأن الطبيعة قد هيأتهم لمواجهة حقائق لا قبل لنا معاشر الباقين بالتفكر فيها. لا يوجد أدنى سبب للاعتقاد بأن الأمر كذلك!»[1]

---

(١) وهم الشيطان (ص٢٣)، ترجمة: مركز دلائل مع تعليقات نفيسة للأستاذ عبد الله الشهري.

أزمة الإلحاد الجديد

«رجل العلم، فيلسوف ضعيف!»

أينشتاين

طبيعة العقل البشري تتجه إلى الاستقرار الفكري والمعرفي المتمثل بالإجابة عن جميع الأسئلة النابعة منه، سواء كانت أسئلة صحيحة أو خاطئة؛ إذن ينبغي على أي منظومة فكرية أن تأمن هذه الحاجة الطبيعية البشرية بالإجابة عُما هو صحيح أو تقديم تبرير منطقي مقبول لتخطئة السؤال، ولا يمكن تجاهل هذه الحاجة بأي حال من الأحوال، نعم يمكنك أن تتجاهلها لحظيًّا؛ لأن العقل البشري سيكون منشغلًا بالدهشة من جرأة إنكار حقه في السؤال والحصول على الأجوبة، لكنه سرعان ما يرجع لِيَلْتَهِمَ هذه التفاهة والصبيانية التي تنكر هذا الحق الوجودي.

لا شكَّ أن ثمة طريقًا واحدًا للحصول على هذا الاستقرار يتمثل في الفلسفة، الفلسفة ليست مجرد صراع بين

المثالية والمادية، الفلسفة هي منظومة عقلية متكاملة تجيب عن الأسئلة الإنسانية الوجودية، قد تتمثل هذه الفلسفة بأي مؤسسة أو مدرسة، مثالية.. مادية.. دينية، لا يمكن لأي منظومة أخرى أن تجيب عن هذه الأسئلة خارج نطاق الفلسفة، وإلا كانت الأجوبة عن هذا، أجوبة مثيرة للسخرية.

لكي نفهم أهمية دور الفلسفة في الإجابة على هذه الأسئلة؛ بل أهميتها في حياة الإنسان اليومية علينا أن نستخلص أهميتها من المعارضين لها.

تُعَدُّ المدرسة الإلحادية الحديثة من أشدِّ الخصوم للفلسفة ومن أشدها تعظيمًا للعلوم الطبيعية، والمتعاطون منهم للفلسفة يتعاطونها على وجه مبتذل جدًّا، ويمكننا القول أن من تعاطى شيئًا من الفلسفة على الوجه الصحيح، كان في أسوء أحواله لا أدريا، أما من تعاطاها من الملحدين فإنه يزداد تكبرًا وتعجرفًا؛ ذلك لأنه يتعاطى شيئًا غير الفلسفة تمامًا، إنه يتعاطى وهمًا معرفيًّا لا أكثر، هذا الوهم الذي قال عنه فرانسيس بيكون: (قليل من الفلسفة يؤدي إلى الإلحاد والتعمق فيها يؤدي إلى الإيمان) يظهر جليًّا في تعاطي الملاحدة مع عقولهم في سبيل الإجابة على الأسئلة الوجودية.

مبعث هذا الإشكال هو أنهم يتعاملون مع الفلسفة

بطريقة دونية، هم يستحقرونها قبل استعمالها، فكيف لها أن تطاوعهم وتلبي احتياجاتهم؟

يرمي ستيفن هوكنج نَرْدَهُ ويراهن على موت الفلسفة، ثم يقول بكل ثقة: (لقد ماتت الفلسفة)!

في كثير من الأحيان يغفل الإنسان عن أكثر الأمور لصوقًا به، وينكرها بعبارات شديدة اللهجة، وما أن ندقق النظر حتى نجد أن هذه الكلمات التي خرجت من فمه، هي كلمات تؤكد ما ينكره بكل وضوح.

الفلسفة هي أمر متجذر في عقلية البشري، شاء أم أبى، فهو عندما ينكرها لا يستطيع أن ينكرها إلا عن طريق الفلسفة، سيحتد نظره، وتنتفخ أوداجه في تسفيه الفلسفة، ولكن لسانه ناطق بها! الفلسفة فكر لا يمكن الهروب منه بأي طريقة من الطرق. كلمة هوكنج في حدِّ ذاتها فلسفة، فالعلم لا ينطق.. لا يتكلم.. فضلًا عن أن يقتل!

إذا ألقينا نظرة على شيء من مصنفات الملاحدة في هذه الفترة البئيسة من حياة البشرية، سنجد أن جلَّ الكتابات هي كتابات فلسفية، تشتم في الفلسفة وأهلها، انظر إلى دوكنز وهو يسطر بثقة يُحْسَدُ عليها كتابه: وهم الإله، فتنهال التعليقات الساخرة من الملحدين المشتغلين بالفلسفة، بأن دوكنز لا يعدو عن أن يكون هاويًا، أو متعصبًا أصوليًّا؛ بل

ملحدًا وقحًا . . مايكل روس ـ الفيلسوف الملحد ـ كال مجموعة التعليقات الساخرة التي تصف دوكنز بالضحالة الفلسفية والمعرفية؛ بل إنه عبَّر عن شعوره بالخجل من كتابات دوكنز.

كُتُبُ دوكنز التي كتبها والتي لا تخلو من كتابات تحاول أن تفسر وتجيب على كثير من الأسئلة على طريقة فلسفية، لا يمكن أخذها على محمل الجد أبدًا، فمن ناحية أن الكتابات هذه تصدر من شخص غير مطلع، ومن ناحية أنها لا تمتُّ للفلسفة وأصولها بأي صلة.

إن قدرة الفلسفة على التوغل إلى جميع العلوم، فأدت إلى استحداث فروع زائدة على العلوم الطبيعية التجريبية وهي ما عرفت بعد ذلك بفلسفة العلوم، تدللُّ لنا على قدرة الفلسفة على إحياء أيٍّ من العلوم الميتة، وهذه القدرة يجب أن تكون محل اهتمام بالغ عند العقلاء، أضف إلى ذلك أن النشوة التي يشعر بها الكُتَّاب والعلماء الطبيعيون أثناء بحثهم واكتشافاتهم هي نشوة فلسفية بحتة، ترجع إلى استمتاعهم بالبحث وإلى دوافعهم الفلسفية للنظر في الطبيعة ومعرفة ماجرياتها.

نعود أيضًا فنجد أن الملاحدة يبحثون وبشراهة أخلاقيات الدين والإلٰه، تجدهم يتبجحون برفض الإلٰه

والخالق بحجة وجود الألم والشر، بعضهم يلحد؛ لأنه يريد حياة جنسية خالية من التعقيد، هذه المعاني التي يدافعون عنها دفاعًا مستميتًا، هي معانٍ فلسفية خالصة، إنهم يحاربون في معركة وسلاحهم فيها الفلسفة، ثم بعد انتصارهم فيها، يبصقون عليها!

هذا التغلغل للفلسفة في حياة الملاحدة الجدد، حتى أصبحت كتاباتهم مليئة بها؛ بل طاغية على غيرها من الكتابات العلمية التجريبية البحتة التي هي من صلب اختصاصاتهم، هو إقرار منهم أو إدراك لأهمية هذه الفلسفة في بناء المنظومة الفكرية لهم أو لغيرهم. إن قابلية التفنيد إن كانت على مقياس كارل بوبر هي تجريبية بحتة؛ فإن هذا فيما يختص بالمناهج العلمية التجريبية، أما فيما يخص المناهج الفكرية المعرفية؛ فإن قابلية التفنيد تكون بالفلسفة، والفلسفة وحدها.

إذن، لماذا هذا التناقض الصارخ في حب الفلسفة وازدرائها في الوقت ذاته؟

إن النظر عبر التليسكوب لمشاهدة كواكب المجموعة الشمسية، هو أمر مبهر بلا شك، ولكن محاولة فهم سبب الانبهار بهذا المشهد، هو أشد إبهارًا!

إن الفلسفة هي التي تزين العلوم وتجملها، يكفيك مثلًا

أن تعرف أن الفلسفة هي مضرب مثل في تصوير الرجل المثقف: إنه فيلسوف! كلمة مطربة بالفعل.

لذلك يستغل الملاحدة الجدد بُعد الناس وعزوفهم عن المعارف الفلسفية، فينمقون الكلمات ويجملونها، ويجعلونها في نظم مبهر تسر السامعين وتأخذ بتلابيب عقولهم، فاستخدام بعض الكلمات البراقة كما فعل دوكنز بكتابه: «وهم الإلٰه»، أو هيتشنز في كتابه: «الله ليس عظيمًا» وغيرهم من الملاحدة، هو استغلال لجمالية الفلسفة في نصر ما يذهبون إليه من أفكار وأوهام، فهو استغلال ظاهري ومعرفة ظاهرية للفلسفة وتشبع بما لم يعطوا، ولكن عندما يقتربون من حاجز العمق، حاجز الغوص إلى حقيقة الفلسفة التي تكشف كل زائف من الأفكار، وتكشف كل مضطرب من هذا الهراء الذي ينطقون به ـ فالفلسفة لا تجامل أحدًا ـ تنتفخ أوداج الكبر عندهم، فيبدؤون بازدرائها مرة أخرى باستخدام قشرها وظاهرها، أرأيت؟ إنها النفعية مرة أخرى تطل برأسها يا صديقي!

ينتفعون من الفلسفة ويقتاتون عليها؛ كالذي يأكل الدواء النافع له؛ فإذا ما تذوقه وشعر بمرارته بصقه، ولو يعلم لكان شفاؤه في هذا الدواء.

ومن المفارقات أن دوكنز ـ أحد عُبّاد العلم التجريبي ـ

قال في مقابلة له مع بين ستاين عندما وجه له سؤالًا: «ماذا لو أنك بعد موتك قابلت إلٰهًا، وقال لك: «ماذا كنت تفعل يا ريتشارد؟ لقد كنت أحاول أن أكون لطيفًا معك، أعطيتك ملايين الدولارات على كتابك ـ وهم الإلٰه ـ وانظر ماذا فعلت!»، هنا استنجد دوكنز ببرتراند راسل فقال: راسل وضع هذا الأمر في الحسبان، فقال شيئًا مثل: «سيدي، لم تجشمت كل تلك الآلام لإخفاء نفسك؟»».

جميل هذا الاستدعاء الأدبي من فيلسوف، ولكن هلا تجشمت عناء التركيز لحظة واحدة في المعطيات التي بين يديك لتدرك أن الإلٰه أقرب إليك مما تظن؟

الإلحاد الجديد.. ثورة فرنسية من جديد

الإلحاد لا يقدر على مجابهة حوار فلسفي بسيط؛ نعم هو قادر على تقديم عرض كوميدي أثناء النقاشات الفلسفية، ولكنها كوميديا سوداء قاتمة، ومع هذا فإن الإلحاد دائمًا ما يتبجح بتقديم نفسه كبديل عن الأفكار المتواجدة على الساحة الإنسانية، كذاك الذي حصل إِبَّانَ الثورة الفرنسية عندما جاءت تلك الحركات الثورية التي عادت الكنيسة لتقدم نفسها بديلًا عن النظام الكنسي، وعلى الرغم من أن هذا النظام كان ظاهرًا في تسلطه وظلمه، إلا أن الثورة كانت عاجزة عن استئصاله واستئصال فكره حتى بين الثوار أنفسهم، فعند بدايات الثورة تم إنشاء الجمعية التأسيسية الوطنية ولكنها حافظت على تمثيل رجال الدين جنبًا إلى جنب مع النظام الملكي والعضو الثالث[1]، وشاركت هذه القوى كلها في

(١) يطلق على الممثلين للطبقة الوسطى في الجمعية.

كتابة الدستور وإنشاء النظام الملكي الدستوري فيما بعد، ولم يتم استئصال المسيحية إلا على يد ماكسميليان روبسبيار[1] في عهد الإرهاب في الثورة الفرنسية؛ حيث تم إعدام الملك ومعه الآلاف من رجال الدين وغيرهم ممن اتهموا بمعاداة الثورة عبر استغلال سوء النظام الملكي والإقطاعية الكنسية[2]، هذا الفشل كان بسبب عدم قدرة القادة الجدد على تقديم أجوبة عن أسئلة الثورة، كانت ثورة مشوشة وغير واضحة، كانت عبارة عن حالة شغب!

يعود الإلحاد الجديد ليقدم نفسه بديلًا عن الأفكار الدينية، يستغل بعض الحوادث الإرهابية هنا وهناك ليبرهن على ضرر الدين وتسميمه لكل شيء[3]، ينشط بعد ذلك ليقدم نفسه على أنه بديل عن الدين والديانات، «مثلما أن داروين ووالاس، قد فسَّرا الأعجوبة الظاهرة في تكوين المخلوقات الحية، دون تدخل إلٰهي أعلى، فإن نظرية تعدد الأكوان، يمكن أن تفسر دقة تصميم الخلق في قوانين الطبيعة، دون الحاجة إلى خالق عطوف» يقول هوكنج.

---

(١) إرهابي فرنسي وزعيم لما يعرف بحزب اليعاقبة، قام بعد استيلائه على الحكم في فرنسا بإعدام الملك لويس السادس عشر وعائلته وأكثر من سبعة عشر ألف مواطن فرنسي من رجال الدين وغيرهم، وكان شديد التحامل على المسيحية والكنيسة وكان سببًا رئيسيًا هو واليعاقبة في القضاء على المسيحية في فرنسا، وكانت نهايته بالإعدام جزاء بما كسبت يداه.

(٢) https://www.history.com/topics/french-revolution

(٣) اسم كتاب لكرستوفر هيتشنز (God Is Not Great: How Religion Poisons Everything)

ولكن إن كنا لا نحتاج «لخالق عطوف» لتفسير القوانين الطبيعية، فهل الإلحاد سيوفر لنا تفسيرًا جيدًا للقضايا الكونية المصيرية والأسئلة الكبرى؟

يعتمد الإلحاد على الداروينية اعتمادًا أساسيًا، لذلك هو يسعى بكل ما أوتي من قوة لتأسيس عقيدة داروينية راسخة في أذهان الملحدين، ليرهب بها عدو الإلحاد من المؤمنين. هذه الداروينية في بداياتها كانت تفسر الكون وجمال الطبيعية الخلابة، انظر إلى كلمات دوكنز في كتاباته وهو يحوكها بأجمل طريقة، يفسر فيها هذا التنوع الجميل، والخلق المبدع، وأسرار الطبيعية، ولكن؛ ربما تناسى دوكنز أن عقل الإنسان لا يتوقف هنا، فهو يحاول دائمًا طرح الأسئلة المتكررة؛ لأنه كائن يحب السؤال دائمًا، يكرره ويعمقه بكل ما أوتي من قوة، «تنتاب الدهشة كثيرًا من الناس وهم يشاهدون استيلاء سؤال الخلق على خواطر الأطفال. يشاهد الطفل حجرًا قد تشكل على نحو غريب، ثم يسأل: من صنعه؟ فيأتي الجواب: لقد تشكل بفعل انسياب تيار الماء. ولكنه، وعلى نحو مفاجئ لا يلبث أن يقذف بسلسلة من الأسئلة المتعاقبة، معبرة عن ذهوله بقدر تعبيرها عن تساؤله: من صنع النهر؟ من صنع الجبل؟ من صنع الأرض؟ من دون شك، ضرورة الصانع مغروزة في الإنسان البدائي منذ وقت

مبكر» كما يقول جيمس لوبيا James Leuba المتخصص في دراسة الأصول النفسية والأنثروبولوجية للأديان.

هذه الفطرية المتجذرة في عقل الإنسان عن حب معرفة الغايات وسؤال «لماذا» دائم الحضور في ذهنه، هذه تؤكد عليها عقلية الملحد قبل غيره، انظر له وهو يتبجح في سؤاله عن غايات فعل الإله؛ بل إن أصل الأوهام الذي يستند إليه الإلحاد يكاد يتمثل في أمر واحد وهو ما يعرف بمعضلة الشر(١)، هذه المعضلة ليست ناشئة إلا عن هذه الغريزة في حب معرفة الغايات، فهم لمّا لم يجدوا الجواب عن هذا السؤال ـ زعموا ـ كفروا بما وراءه، حسنًا؛ بعد كفرهم هذا هل وجدوا أجوبة في إلحادهم على هذا السؤال وغيره من الأسئلة المحورية؟

سنلقي الضوء على اثنين من أهم الأسئلة الوجودية التي يكثر الحديث عنها في النقاشات الفكرية بين الملاحدة والمؤمنين وها نحن نحاول استعراض قدرة المنظومة الفكرية الإلحادية على تقديم تفسيرات جيدة لهذين السؤالين المحوريين.

---

(١) يقول بلانتنجا: (من المحتمل أن تكون المشكلة التي تعرف بـ(مشكلة الشر) هي أقوى دليل ـ وربما الدليل الوحيد ـ يمكن استحضاره ضد المعتقد الألوهي). انظر: ورقة مترجمة بعنوان: هل الإلحاد لا عقلاني: جاري جتنج مع ألفن بلانتنجا، ترجمة وتعليق: الشيخ عبد الله الشهري.

سؤال النشأة

«لقد أدت أكثر من ثلاثين سنة من إجراء التجارب عن أصل الحياة في مجالات التطور الكيميائي والجزيئي إلى الوصول إلى إدراكٍ أفضل لضخامة مشكلة أصل الحياة على الأرض بدلًا من حلها. وفي الوقت الحالي؛ فإن المناقشات الدائرة حول نظريات وتجارب أساسية في هذا المجال إما أن تنتهي إلى طريق مسدود أو إلى اعتراف بالجهل»

كلاوس دوس (Klaus Dose)

من أين أتينا؟ هو السؤال المحوري الذي تدور حوله الأفكار دور الرحى، يسعى الملاحدة جاهدين على الخروج من هذا السؤال بجواب مقنع غير حقيقة الإله والخالق.

يصرِّح دوكنز بأنه لا يعرف كيف بدأت «العملية البطيئة» التي بدأ من خلالها الكون، يقول بكل ثقة: «لا أحد يعرف كيف بدأ»، يسأل بين ستاين، ريتشارد دوكنز فيقول له: «إذن، فأنت لا تملك أي فكرة، كيف نشأت الحياة؟» يقول دوكنز: «لا.. لا.. لا أحد يعرف ذلك».

يستبعد هنا دوكنز فكرة الإلٰه استبعادًا تامًّا، ومع ذلك يقرر عدم معرفته بكيفية نشأة الحياة، هذا الإقرار لم يخرج بسهولة من فم دوكنز، فهو حاول مرتين أن يفسر هذه النشأة بما سماه «العملية البطيئة» ومن ثَمَّ الأصل المشترك.

ليس المهم الآن أن ننظر في أجوبة دوكنز، بقدر ما علينا أن نتعجب من اهتمامه واستماتته في تقديم جواب على هذا السؤال المركزي! ببساطة، إن دوكنز يشعر بالحرج الشديد لعدم قدرة العلم على الإجابة على هذا السؤال.

يعبِّر ديفيد كلينهوفر عن هذه النكتة التي تتمثل في أن الحياة قد نشأت من اللاحياة بمثال طريف فيقول:

«وضعت الأدوات والمكونات بعناية في ركن المطبخ. علبتين تونة، كيس من النودلز، كتلة من جبن الشيدر؛ بالإضافة إلى البصل، والبازلاء الخضراء المجمدة، وكريم حساء الماشروم المكثف، وعلبة من قطع الماشروم، وكوب من قطع البطاطس (للتزيين).

المعدات جاهزة؛ وعاء الخلط، مقلاة الخبز، وعاء من الماء لسلق النودلز، وفتاحة العلب، ومبشرة للجبن، ومصفاة للمكرونة. لوح للتقطيع وسكين لتقطيع البصل. افتح أحد أعين الموقد، وضع الفرن على درجة ٤٢٥ ف.

عائلتك جائعة، ولكن كل شيء في مكانه! طريقة إعداد

الوصفة تخبرك بأن التجهيز يستغرق ١٥ دقيقة والطبخ ٢٠ دقيقة، وبالطبع هذا على أقصى تقدير.

الآن، اجلس واسترح. كم من الوقت سيستغرق حتى تُجمِع هذه العناصر نفسها لعمل طبق المكرونة بالتونة؟ صب لنفسك كأسًا وشاهد هذا يحدث.

ها! أنت قلق الآن؛ لأن الأغراض ليست لديها وسيلة لكي تجتمع سويًّا بشكل فيزيائي.

حسنًا، بينما تمر الأيام وأنت تستمر في التحديق باهتمام في طبقك غير المجمع، ربما زلزال (سياتل) المتوقع سيأتي ويدفع هذه الأشياء لكي تجتمع. يصطدم الجُبن مع المبشرة، وعلبة التونة تقرع فاتح العلب، والماء يطوف في وعائه وبعض منه يخرج إلى كيس الباستا المغلق ويرمي البعض الكافي منها بعد الاصطدام.

سخيف!

ليس أكثر سخفًا من القصص التي أصبحت سمة منتظمة لأخبار العلوم التي تتوقع ـ مع الفارق في هذا القياس ـ بعجائب عظام ستحدث تلقائيًّا حينما تظهر «مكونات» الحياة أو بعض منها في مكان ما»[1].

---

(١) كيف يمكن أن تنشأ الحياة، ورقة مترجمة منشورة على موقع مركز براهين.
http://www.braheen.com/mag/25-misc/69-origin-of-life

هذه الخلاصة التي يرمي إليها الإلحاد الجديد في محاولاته المتكررة لتفسير نشأة الكون لم تأت بنتيجة أبدًا، ولم يزل الإلحاد في ورطة.

منذ قرن من الزمان إلى يومنا هذا والإلحاد يزداد فشلًا في محاولاته لتفسير نشأة الكون. في عام ١٩٣٦م ينطق ألكساندر أوبارين فيقول: (لسوء الحظ، ما زال أصل الخلية سؤالًا يشكّل ـ في الواقع ـ أكثر نقطة مظلمة في نظرية التطور بأكملها)، ثم يأتي جيفري بادا ليأكد هذه المقولة بقوله: (لسوء الحظ، ما زال أصل الخلية سؤالًا يشكّل أكثر نقطة مظلمة في نظرية التطور بأكملها).

لقد أصبح هذا السؤال هاجسًا يطارد دوكنز وباقي الملاحدة في كل إطلالة لهم، هذا الإلحاح في طرح السؤال الذي يقابله عجزٌ في إعطاء جواب واضح له، يجعل الإلحاد يعيش في أزمة حقيقة، فهو ما زال يسوّف الجواب، يأجله إلى وقت مجهول غير معلوم.

اسمعني جيدًا؛ إن أردت أن تضع نفسك بمثابة البديل عن فكرة ما، فعليك أن تقدم أجوبة مقنعة عن الأسئلة التي يجيب عنها ذاك الفكر الذي تحتقره، لا يمكنك أن تتبجح بقولك: لا أعرف، وفي نفس الوقت تنسف باقي الآراء بلا دليل ولا برهان منطقي.

قد يقول قائل: ولكن العلم هنا محايد، لا يجامل

أحدًا فهو يقول: لا أعلم، بينما الأديان والفلسفة هي التي تتبجح بادعائها الإجابة عن هذا اللغز المحير؟

هنا نرجع إلى ذات الإشكال الذي طرحناه سابقًا، وهو أن الملاحدة الجدد يريدون خوض معركة في غير أرضها، إنهم ببساطة يتكبرون عن الاعتراف بأن مشكلة نشأة الكون هي مشكلة فلسفية بامتياز، ولا يمكن للعلم التجريبي أن يجيب عليه بأي حال من الأحوال، إنه سؤال عن السببية، عن سبب نشأة الكون، وهذا السؤال فلسفي بحت كما يصرح بذلك بوبر!

إذن؛ إن العجز حتى عن الاعتراف بالإشكالية الأصولية في التعامل مع هذا السؤال، هو الذي يجعل الأزمة تتفاقم عند الملاحدة الجدد مما يجعل إجابتهم عن هذا السؤال مستحيلة خارج مظلة الفلسفة.

ولقائل أن يقول ويعترض مرة أخرى: إن الكتابات الإلحادية الفلسفية مليئة بالأجوبة عن هذا السؤال، فكيف نزعم أن الإلحاد ليس بقادر على أن يجيب عن سؤال نشأة الحياة؟

مرة أخرى، تظهر لدينا إشكاليات معرفية، إن الإلحاد يطوّع الفلسفة لمقاصده، ولا يطوّع مقاصده للفلسفة. الإلحاد يتعامل مع الفلسفة على أنها أمر ثانوي، فهو ينطلق ابتداء من

نظرية علموية تجريبية، ثم بعد ذلك يقوم بتجميلها عبر الظواهر الفلسفية؛ فيأخذ منها القدر الذي يسد به حاجته من الإبهار؛ حتى إذا ما شعر بأنها تهدد كيانه = نسفها!

ويبقى سؤال نشأة الحياة من اللاحياة، هو سر من الأسرار ولغز من الألغاز يعجز الإلحاد عن الجواب عليه.

معضلة الأخلاق

«في الجملة، الملحد هنا يشعر أن عليه واجبًا أخلاقيًا تجاه نفسه باعتناق الإلحاد، ودعوة الآخرين إليه، وهو متمرس على مقاومة شعوره بالفراغ الديني، إما بالتجلد على إلحاده أو تخفيف وتيرة ذلك التجلد بحشد ما يراه أدلة على صحة قراره».

الشيخ عبد الله الشهري

«الفلسفة الهيومانية في الغرب بتأكيدها القيم الأخلاقية المطلقة ومقدرة الإنسان على تجاوز واقعه الطبيعي بتأكيدها القيم الأخلاقية المطلقة، ومقدرة الإنسان على تجاوز واقعه الطبيعي: المادي وذاته الطبيعية/المادية، تعبير عن الإله الخفي وعن البحث غير الواعي من قبل الإنسان المادي عن المقدس؛ فمثل هذه القيم ومثل هذه المقدرة ليس لهما أساس مادي».

د. عبد الوهاب المسيري

الأمر الذي لا شكَّ فيه أبدًا، هو استقرار أهمية الأخلاق لضمان استقرارية الجنس البشري؛ فالأخلاق لا تعدو

أن تكون الضابط الأول والأخير لسلامة البشر على سطح البسيطة من الفناء، فإذا ما ذكرت الأمور الأخلاقية كان على رأسها سلامة الجنس البشري من أي ضرر يلحق به سواء جسديًّا كان هذا الضرر أو فكريًّا.

ينبغي علينا أيضًا أن نسلم تسليمًا تامًّا، بفلسفية النقاش الأخلاقي، لا يمكن لنا أن نقبل أبدًا بجعل النقاش الأخلاقي تابعًا للقضايا التجريبية؛ إذ لا معنى لذلك البتة، فهو كما يقول ديفيد برنلسكي: «إن النظريات الفيزيائية بصفتها لم تقل شيئًا عن الله، فلن تقول شيئًا عن الصواب والخطأ والحسن والقبح»[(١)]. إذن فإن العلوم الطبيعية ستكون عاجزة بلا شك عن الحديث عن القضايا الأخلاقية.

أقرب ما يكمن أن نصور به النظرية الأخلاقية الإلحادية هي النظرية النسبية ـ النفعية للأخلاق بمعنى: أن الممارسات الأخلاقية هي عبارة عن ممارسات لضمان الحصول على السعادة وضمان الوجود المجتمعي، وفي نفس الوقت هي قد تختلف من مجتمع لآخر أو من زمان لآخر حول تحديد ماهية النافع لهذا المجتمع، يقول فيكتور ستينجر: «فكرة أن السرقة من أعضاء مجموعتك غير أخلاقية لا تتطلب وحيًا إلٰهيًّا؛ بل

---

(١) بتصرف من كتاب: وهم الشيطان ـ ترجمة: عبد الله بن سعيد الشهري ـ مركز دلائل (ص٦٧).

يكشف عنها تأمل لحظي حول نوع المجتمع الذي قد يوجد لو سرق كلٍ أحد من غيره. لو كان الكذب يُعد فضيلة بدلًا من الصدق لأصبح التواصل مستحيلًا. والأمهات أحببن أطفالهن حتى قبل أن تخطو الثدييات على الأرض «لأسباب تطورية واضحة» والمدركات الوحيدة التي يقدمها الدين هي النهي عن مساءلة عقائدها.

بالطبع لا يتفق الجميع على كل شأن أخلاقي»[1]

حسنًا، يمكننا أن نشاهد بوضوح كيف أن الملحد يضل عن صلب الموضوع، فهو يتصور أن الأديان تزعم أنه لا يمكن للإنسان أن يكون أخلاقيًّا إلا عبر الدين، وهذا تقوّل على الأديان، وإنما دور الدِّين في المسألة الأخلاقية هو دور آخر لم يستوعبها الملحد بعد.

قبل أن نبيِّن دور الدين في المسألة الأخلاقية، دعونا نناقش بشكل سريع فكرة الأخلاق النفعية.

---

(١) فرضية الإله (ص١٩٠).

محور الأخلاق هو الجواب عن سؤال: ماذا أفعل؟

حاولت النفعية الأخلاقية أن تجاوب على هذا السؤال الأخلاقي، ففشلت في بداية الأمر في تصوير مذهب برّاق وجميل على يد جيرمي بنثام أحد رواد النفعية، فمن وجهة نظر جون ستيورت ميل «مجدد المدرسة النفعية» فإن بنثام قد أهمل الكثير من الجوانب الملتصقة بطبيعة الإنسان من الشعور والواجب الأخلاقي فأسس ميل للتفريق بين النافع والصالح؛ فالنافع هو ما يمكن أن يساهم في السعادة العامة، بينما الصالح لا يعدو عن تحقيق أهداف قريبة المدى لا تعلو قيمتها إلى مستوى القيم الأخلاقية، فيمكننا القول بكل وضوح أن ميل قام بإعادة هيكلة الفلسفة الأخلاقية النفعية ليظهرها في وجهها الجديد المنقح والمعمق[١]

ولكن هل استطاع مع هذا أن يتجاوز المشاكل التي

---

(١) انظر: مقدمة محقق كتاب «النفعية» (ص٩).

واجهتها الفلسفة النفعية في بدايات ظهورها؟ يصف ماركس الإشكالية الرئيسية في فلسفة بنثام حيث يقول:

«إن جيرمياس بنتام ظاهرة إنجليزية صرفة، فلم يسبق لأحد مثله لا في أي زمان، ولا في أي بلد، أن تبختر مختالًا راضيًا، بعرض أشد التفاهات ابتذالًا، إن مبدأ المنفعة ليس من اكتشاف بنتام، فقد استنسخ بأسلوبه البليد ما قاله هلفيتيوس ومفكرون فرنسيون آخرون بفطنة فكرية في القرن الثامن عشر.

فلمعرفة ما ينفع الكلب مثلًا ينبغي على المرء أن يدرس طبيعة الكلب أولًا، ولكننا لا نستطيع استنباط هذه الطبيعة من (مبدأ المنفعة)، وعند تطبيق ذلك على الإنسان فإن الذي يحاكم كل السلوك والتصرفات والعلاقات الإنسانية.. إلخ بموجب مبدأ المنفعة، عليه أولًا أن يدرس الطبيعة الإنسانية بوجه عام، وتبدلات الطبيعة الإنسانية في كل حقبة تاريخية، أما بنتام فلا يكلف نفسه عناء السؤال والجواب، إنه يأخذ بسذاجة وبلادة المالك الصغير الجلف المعاصر، وبالذات المالك الصغير الجلف الإنجليزي؛ كنموذج للإنسان السوي العادي، وكل ما هو نافع لهذا النوع من الإنسان السوي وعالمه، يكون في ذاته ولذاته نافعًا، وبهذه المسطرة يقيس بنتام الماضي والحاضر والمستقبل؛ فالدين المسيحي مثلًا نافع؛ لأنه يحظر باسم الدين نفس الآثام التي يعاقب عليها قانون العقوبات.... بمثل هذه النفايات ملأ صاحبنا الشجاع جبالًا من الكتب، ولو كان

لي إقدام صديقي الشاعر هاينريش هاينه، لسميت السيد جيرمياس: عبقري الغباوة البرجوازية»[١]

هذا التوصيف يبدو ظاهرًا جدًّا، إنه يقفز من كتابات وأفكار بنثام، فهو يجعل النموذج البريطاني هو النموذج المثالي للإنسان السوي الذي على مقياسه يقوم بمعرفة النفعية وقياسها، قد يبدو من الطرافة الربط بين الهجوم الشرس من رائد الفلسفة النفعية بنثام على آكلي اللحوم ودفاعه المستميت عن حقوق الحيوان وبين انتشار الحركة النباتية وتغلغلها في الثقافة البريطانية ووصلت ذروتها في القرن التاسع عشر ويصف الباحث جون جريجيرسون الحركة النباتية في بريطانيا بقوله: «إنه في عصر التنوير وفي بدايات القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا هي المكان الذي استقبل أفكار النباتيين أكثر من أي مكان آخر في أوروبا. كان الإنجليز متحمسين جدًّا لتنفيذ هذه المبادئ عمليًّا»[٢]. ربما يبدو الأمر طريفًا كما ذكرت، لكني لا أرى في هذا المثال إلا تدعيمًا لنظرة ماركس إلى هذه الفلسفة البئيسة المرتبطة بثقافة بريطانية خالصة.

حسنًا، هل قدم لنا جون ستيوارت نظرة أفضل للنفعية؟

---

(١) رأس المال؛ المجلد الأول: عملية إنتاج رأس المال، كارل ماركس، ترجمة: فالح عبد الجبار، دار الفارابي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ٢٠١٣م، (ص٧٥١، ٧٥٢) باختصار.

(٢) Gregerson, Jon: Vegetarianism. A History, Fremont 1994, p. 56-59.

إنه من السهل علينا أن نقرأ الصعوبة التي يواجهها ميل في محاولة شرحه لنظريته، فهي تنتابها ـ كما الفلسفة النفعية ـ الكثير من الغموض والفجوات. لقد حاول ميل أن يقدم لنا صورة أشمل وأوسع للنفعية، فهي لا تتعلق بنفعية الفرد؛ بل نفعية المجتمع، لا تتعلق بسعادة الفرد، ولكن سعادة المجتمع ككل.

إن السؤال الكلاسيكي والذي يُعد سؤالًا أصوليًّا بطبيعة الحال ويراود النفعية؛ بل يراود أي فلسفة أخلاقية: «ما هي المعايير التي يُعْرَفُ بها كل من اللذة والألم والغاية الأخلاقية الإنسانية»؟ هذا السؤال لم يجد له جوابًا ميل، لم يستطع أن يجيب عليه بطريقة تخرجه من المأزق! إنه يرى أن مقياس الأخلاق «هي القواعد والأوامر الخاصة بالسيرة الإنسانية، والذي بتطبيقه نتمكن من ضمان عيش كالذي سبق وصفه؛ [أي: حياة فيها إعفاء ما أمكن من الألم، وتكون ثرية قدر الإمكان باللذات وذلك من حيث الكم ومن حيث الكيف] إذا ما وسعنا فيه إلى أقصى ما يمكن دون الاقتصار على البشر، فحسبما تقبله طبيعة الأشياء يشمل المخلوقات الحاسة»[١]، إن ضوابط تعرف لنا مصطلحات مثل المجتمع، والألم، واللذة، والكم، والكيف، ما زالت غائبة عن كتابات ميل، ما زال الأمر غامضًا، إن الأمر ببساطة يكمن في عجز النفعية عن إفهامنا هذه المعاني،

(١) النفعية (ص٤٤).

وإن كانت النفعية ترجع الأخلاق إلى الحس، إلا أن هذه الأمور التي تدافع عنها لا تتعلق بالحس أبدًا، إنها أموز وجدانية خالصة لا ضابط لها ولا رقيب على تطبيقها.

أضف إلى ذلك وهي إشكالية تتعلق بمعرفة فعالية تعيين الغاية الإنسانية، ما الذي يدفعنا للاعتراف والإقرار بأن السعادة واللذة هي غاية الإنسان والوجود البشري، ما هي الطريق لإقناعنا بأنها أم الغايات وأسماها؟ يجيب ميل عن هذا السؤال فيقول: «إن البرهان الوحيد على أن الشيء مرئي هو أن الناس يرونه بالفعل، والدليل على أن الصوت مسموع هو أن الناس يسمعونه بالفعل، ومثل هذا يقال في سائر منابع التجربة عندنا، وبمثل هذه الطريقة إن الدليل الوحيد الذي يمكن الإدلاء به على أن شيئًا ما مرغوب فيه هو أن الناس يرغبون فيه بالفعل، فإذا لم يعترف الناس نظريًّا وعمليًّا بالغاية التي تقترحها النظرية النفعية، تعذّر إقناع إنسان بهذه الغاية، ليس هنا من سبب يمكننا أن نذلل به على أن سعادة المجموع شيء مرغوب فيه سوى أن كل فرد يرغب فعلًا في سعادته الشخصية كلما اعتقد إمكان الحصول عليها، وإذا صح هذا كنا قد أثبتنا ـ بالدليل الذي تحتمله وتتطلبه هذه العبارة أن السعادة خير في ذاتها، وأن سعادة كل فرد خير لذلك الفرد، وبالتالي أن سعادة المجموع خير لمجموع أفراده، ومن ثَمَّ تكون السعادة إحدى غايات السلوك الإنساني ومعيار الأخلاقية».

إن ميل يُحْسَدُ على جرأته في اقتحام مستنقع مغالطة التركيب كما يقول جون ماكنزي: «قد يكون من العسير أن نجد من المغالطات الكثيرة في فقرة قصيرة في أي كتاب ما نجده منها في هذه الفقرة، ففي قول ميل: إن سعادة المجموع خير لمجموع أفراده، مغالطة تُعرف في المنطق باسم «مغالطة غموض التركيب» Fallacy of Composition؛ لأن ميل يعتبر سعادة المجموع مجموع سعادات أفراده؛ أي: طالما كانت لذَّاتي خيرًا لي ولذَّاتك خيرًا لك ولذَّاته خيرًا له. . وهلم جرًّا. . كانت لذَّاتي مضافة إلى لذَّاتك ولذَّاته خيرًا لي ولك وله مجتمعين! ولم يفطن ميل إلى أن أنواع اللذات لا يمكن جمعها كما تُجمع أفراد الناس.

وشبيه برأي ميل في هذا الصدد أن نقول: إن الفرقة التي تتألف من مائة جندي طول كلٍّ منهم ستة أقدام لا بد أن يكون طول هذه الفرقة ستمائة قدم. . .! وكان يمكن أن يكون هذا صحيحًا لو وقف كل جندي فوق رأس جندي آخر. . .! أي: أن حجة ميل السالفة الذكر كان يمكن أن تكون صحيحة لو أن عقول الناس جميعًا أمكن أن يندمج بعضها في بعض وتصبح مجموعًا عقليًّا واحدًا ولكن مجموع الأفراد ليس فردًا، ومن ثَمَّ لا تكون لذَّاتُه لذَّاتٍ لأي فرد آخر»[١]

إذن، ما زالت معرفة أصول معرفة الغايات عند الفلسفة

---

(١) مذهب النفعية العامة في فلسفة الأخلاق (ص١٨٤).

النفعية مجهولة، وحتى بعد محاولات تجديدها على يد جون ستيوارت ميل؛ فإنه يمكننا وبكل ثقة أن نقول أن ميل لم يزد الموضوع إلا تعقيدًا.

إن الفلسفة الأخلاقية النفعية عجزت عن تقديم جواب حقيقي ومقنع عن كيفية معرفة النافع والضار، الحسن والقبيح، الغاية الإنسانية وغيرها، وبطبيعة الحال هذه النظرة الأزمة الأخلاقية امتدت إلى الإلحاد المعاصر أيضًا؛ فإن سؤال الأخلاق يشكّل معضلة تهز أركان الإلحاد الجديد بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إنها أزمة حقيقة يواجهها الإلحاد المعاصر.

يعجبني دوكنز بصراحته في التعبير عن الأزمات التي يواجهها الإلحاد المعاصر، إنه يعترف بالأزمة ويربط معها وثوقية منقطعة النظير في أن العلم سيمتلك الجواب عن مثل هذه الأسئلة، أجوبة ـ مع أن دوكنز لا يحمل أدنى فكرة عن طبيعتها ـ إلا أنها أجوبة ستكون لصالح الإلحاد بلا شك!

يعبِّر لنا دوكنز عن حقيقة الإشكالية التي يواجهها الإلحاد في مسيرته الأخلاقية (ما الذي يمنعنا من القول بأن هتلر كان على صواب؟ أعني: هذا سؤال صعب فعلًا)!

أضف إلى ذلك بأن دوكنز يعترف بافتقار أدواته المعرفية في الحديث عن الجانب الأخلاقي: «لا أستطيع في النهاية أن أجادل فكريًّا ضد شخص فعل فعلًا أعتقد أنه شنيع. أظن

أنني في نهاية المطاف سأقول له: (حسنًا، في هذا المجتمع لن تستطيع الفرار بهذا الصنيع) وسأتصل بالشرطة. أدرك أن مثل هذا الجواب ضعيف وقد قلت بأني لا أشعر بأني مجهز بأدوات إنتاج حجج للجانب الأخلاقي على النحو الذي أستطيعه في مجال علوم الكون أو البيولوجيا، لكنني ما زلت أعتقد بأنها قضية منفصلة عن الإيمان بالحقائق الكونية).

هذا الجواب الذي ينبؤ عن عمق الأزمة الأخلاقية حسب المعطيات الإلحادية، لم يدفع دوكنز إلى التواضع أثناء حديثه عن أخلاقيات الديانات؛ بل فضَّل على ذلك أن يُعيِّنَ الدين وبكل ثقة أنه «أصل للشرور»!

ولكن إن كان الإلحاد أبدى فشله في تقديم رؤية حقيقة للأخلاق؛ فهل استطاع الدين فعل ذلك؟

ربما يرجعنا هذا إلى السؤال الذي طرحناه آنفًا: ما هو دور الدين في ساحة الحوار الأخلاقي؟

الأخلاق هي أمر ضروري يحكم الأفعال والسلوك البشري من أقوال وأفعال، الخير، الشر، الحسن، القبيح، أمور متلازمة والفعل البشري؛ الإنسان بطبيعته يحشر أنفه سليقة للحكم على الأفعال البشرية، انظر إلى الملحد وهو يكيل مكاييل الأسئلة عندما يُجَابِهُ المؤمن: «لماذا يفعل ربك كذا؟»، «لماذا إلٰهك يسمح بقتل الزاني؟»، «إن هذا الدين

لا يدفع الناس إلا إلى كل شر»، «لماذا تلبس المرأة البرقع؟ أمر مشين ومقزز!»، إلى آخر هذه النغمات النمطية التي تنطلق من فم الملحد للحكم على الأفعال، ليس كل الأفعال بطبيعة الحال، وإنما أفعال المؤمنين، والمسلمين منهم خاصة!

فهذه الفطرة التي فُطِرَ العقل البشري عليها من حب الاستفسار عن قيمة الأفعال ومقياسها، تجعلك تقطع بضرورية معرفة هذا المقياس، وعلى العكس من لا مبالاة دوكنز؛ فالإنسان عندما يلح عليه سؤال؛ فإن هذا السؤال هو سؤال مهم؛ بل محوري يجب معالجته ولا يمكنك أن تنحيه جانبًا بكل بساطة.

«أكون متفائلًا لدرجة السذاجة إن اعتقدت أن الناس سيظلون أخيارًا عندما يكونون بمنأى عن رؤية الله ورقابته» ريتشارد دوكنز.

الرقابة، والإلزام الأخلاقي، وضمانة الإلزام الأخلاقي، هذه الأمور هي التي تعطي للأخلاق قدرة على تحقيق أهدافه على الأرض؛ بل هي التي توجد له مساحة على الأرض؛ لأنها تتواءم وطبيعة الأخلاق التي هي من حيث مكوناتها المجردة ليست ملزمة للإنسان مع كونها ضرورية لبقاء حياته، فإنه وبكل بساطة يتخلى عنها في سبيل ما يراه أسمى منها، إني أتذكر بعض الكلمات التي نطق بها هتلر: «الأخلاق جاءت لتحسن حياتنا، ولكن متى تعرضت

الحياة للخطر، فسنكون في حرب مفتوحة لا مجال فيها للأخلاق؛ لأن الموضوع لم يعد يتعلق بالتحسين! بل بالوجود».

فكان لا بدَّ من وجود إلزام أخلاقي فعال لضمان استمرارية تطبيق الأخلاق والحفاظ على الجنس البشري والقيم البشرية، هذا الإلزام هو الذي يتمثل بالرقابة، والجنس البشري كما يصوره لنا نيتشه هو جنس وحشي، ينزع إلى الوحشية والظلم والتعدي: «في أساس الأجناس الأرستقراطية لا مفر من الالتقاء بالعنصر الوحشي، إنه يتنقل باحثًا عن عراك دموى، عن فريسة من اللحم، إن الأجناس جميعًا كلها تستوي في تلك النزعة، إن هذه الجرأة عند الأجناس النبيلة لا مبرر لها ولا غاية، إن هؤلاء الناس لا يبالون وقاية أبدانهم وضمان حياتهم إنهم يتذوقون في غبطة كل هدم وتدمير»، قد لا يكون الإنسان دمويًّا إلى هذا الحد، ولكن كلام نيتشه هذا يدفعنا للتفكر في أهمية نفاذ الأخلاق وتحكمها بالأفعال واحتوائها على قدرة للإلزام والردع، وإلا انتقلت الأخلاق هبوطًا من درجتها الضرورية إلى الدرجة الكمالية التي يمكن للإنسان أن يستغني عنها؛ والاستغناء عنها = كارثة.

نرجع إلى كلام دوكنز الآنف، يعلق عليه ديفيد برلنسكي قائلًا: «إن الناس ليسوا أخيارًا بالفطرة، في أغلب الأحيان، العكس تمامًا! لهذا السبب لا بدَّ من كبحهم بالترهيب إن أمكن، وبالقوة عند الضرورة. . . . إنني في معظم الظروف آخر شخص في الأرض يمكن أن يعتبر

ريتشارد متفائلًا لدرجة السذاجة[1]، إلا في هذا الموضع فإني أخضع لتوصيفه.

لم يجب على الناس أن يظلوا أخيارًا حين يكونون بمنأى عن رؤية الله ورقابته، هل يظل الناس أخيارًا حين يكونون بمنأى عن مراقبة الشرطة؟ إن دوكنز يعتقد ذلك، فعليه أن يفسر وجود قانون الإجرام، وإن كان لا يعتقد ذلك، فعليه أن يفسر لماذا تنعدم الحاجة إلى إنفاذ الأخلاق في الموضوع الذي ينتهي عنده إنفاذ القانون.

بالنسبة للملاحدة العلميين، الفكرة القديمة القائلة بأن الإنسان ذئب للإنسان[2] تذرهم يهزون رءوسهم في حيرة خرقاء»[3]

الدين كمعتقد راسخ يحمل ما لا تحمله أي منظومة أخلاقية من قوة على الردع والإلزام بالمنظومة الأخلاقية، هذا القدر لا يخالف فيه حتى أعتى الملاحدة، يقول دوكنز: «ليست جميع الأحكام مطلقة مستمدة من الدين، ولكن من الصعب جدًّا الدفاع عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين»، بكل تأكيد عزيزي دوكنز؛ لأنه لا توجد

---

(١) كأنه يشير بسخرية إلى تسخط دوكنز الدائم على الإلٰه والأديان؛ فكلامه لا يدل على تفاؤل أبدًا!

(٢) كلمة منسوبة لتوماس هوبز.

(٣) وهم الشيطان، ترجمة: عبد الله الشهري ـ مركز دلائل (ص٦٥).

منظومة أخلاقية حقيقية يتبنّاها الإلحاد، إنه مستعد للتخلي عن الأخلاق عند أول مفترق طرق.

انظر إليهم وهم يناقشون المسائل الأخلاقية بكل تبجح، وينظّرون على الدين ثم إذا سئل عن أمر؛ كزنا المحارم إذا به يتخبط ولا يدري ما يقول، يحاول كريستوفر هيتشنز أن يخبرنا عن سرٍّ وجود الأخلاق بين الناس، وأنهم لا يحتاجون لوجود الإلٰه لامتلاكهم الاعتقاد بأن الاغتصاب أمر غير أخلاقي مثلًا بما يفسره «بالاعتضاد الإنساني الذي يتطلب منا أن نعتني بأنفسنا وببعضنا البعض كالأخوة والأخوات» جميلة قصة الأخوية هذه والتعاضد الإنساني، لكن ربما كانت في نزهة ما إِبَّانَ حفلة الشواء التي أقامها ماو تسي تونج مع ٤٥ مليون شخصٍ في الباحة الخلفية لجمهورية الصين الشعبية، أليس كذلك هيتشنز؟ مضحكة هذه الإحالات المتتالية على المشاعر الميتافيزيقية والتمسك بها.

الملاحدة الجدد بارعون في وصف معتقداتهم التي يعتقدونها، فاشلون فشلًا ذريعًا في بناء ذلك بناء علميًّا سليمًا، وها أنا ذا أقتبس من كلام ماركس: «بمثل هذه النفايات ملأ أصحابنا الملاحدة الجدد الشجعان جبالًا من الكتب، وإني أسميهم: عباقرة الغباوة البرجوازية».

أفول الإلحاد وإخماد الثورة

وأخيرًا لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الذين ينكرون وجود الله؛ فالوعد والعهد والقسم، من حيث هي روابط المجتمع البشري ليس لها قيمة بالنسبة للملحد. فإنكار الله، حتى لو كان بالفكر فقط، يفكك جميع الأشياء. هذا بالإضافة إلى أن أولئك الملحدين الذين يدمرون كل الأديان ليس من حقهم أن يستندوا إلى الدين لكي يتحدوا.

جون لوك ـ رسالة في التسامح

قد يكون جون لوك غير متسامح البتة مع الملاحدة ـ وكذلك الأمر مع الكنيسة والمسلمين ـ وهذا الأمر يمكن تَفَهُّمُهُ نتيجة لتقديسه للدولة المدنية والعقد الاجتماعي، فهو يخشى انقضاض أي فصيل سياسي على السلطة المدنية.

لن أخوض في نقاش مع لوك في هذا الجانب، ولكن إن كان للمسلم عهد مع إمامه، وللمسيحي عهد مع كنيسته؛ فإن الملحد لا عهد له البتة؛ بمعنى: أن المسلم إن «انْقَضَّ»

على السلطة المدنية، فغاية ما سيفعله هو الحفاظ على الأقليات الدينية في بلده مع تطبيق الجزية، لا بأس، ماذا لو حكم الملحد قطر من الأقطار؟

هذا السؤال تستطيع أن تجيب عنه بعد تحليلك للخطاب الأخلاقي الإلحادي، فهو يواجه أزمة في فهم الروابط الاجتماعية المقدسة، ويواجه أزمة في معرفة القيم الإنسانية، إنه ببساطة: لا يعرف عنها شيئًا!

فكرة الدولة وقيادة العالم، قائمة على فهم طبيعة سحر هذا الكون، سحر هذا الكون هو ما يملؤه من قيم وأخلاق في تلك المساحة الخالية من أي شيء ذي قيمة أو أخلاق «إن المشكلة تكمن في إيجاد مساحة للأخلاق أو إقامة الأخلاق في النظام اللاأخلاقي أو المجرد من السحر الذي نعيش فيه ونشكل جزءًا منه»[1]، وإن كان بلاك بيرن يرفض تفسير الكون على ضوء النظرة الدينية، إلا أن هذا سيزيد الطين بلة على عاتق الإلحاد، فهو عاجز تمامًا عن تقديم أي

---

(١) هذه العبارة للفيلسوف سايمون بلاك بيرن نقلتها عن كتاب وهم الشيطان (ص٦٦).

المقصود بقوله: المجرد من السحر: تجريد العالم من سحره تعبير يعود إلى عالم الاجتماع ماكس فيبر، ويقصد به تجريده من المعاني الإنسانية الذاتية، دينية كانت أو ثقافية، التي يضفيها الإنسان على الطبيعة والكون من حوله. (مترجم كتاب وهم الشيطان: الشيخ عبد الله الشهري).

نظرة قيمية للأخلاق خارج إطار الدين، وكذلك فإنه عاجز تمامًا عن تقديم ضمان لهذا النظام الأخلاقي الافتراضي الذي يقدمه.

لنفهم خطورة التحرر من اللوازم الأخلاقية، علينا أن نقرأ صفحات كادت أن تكون منسية من تاريخ الإلحاد الدموي، إنه تاريخ يعجُّ بالجماجم والجثث، يعج بالقذارة الفكرية والدونية الأخلاقية.

قبل أن نقرأ صفحات من هذا التاريخ المنسي، علينا أن نتنبه إلى أن الملاحدة الجدد يحاولون دائمًا التهرب من هذا الموضوع؛ لأنه يشكِّل أزمة لهم، إنهم يسلمون للداروينية في كل علم من العلوم، في كل المجالات يعدون الداروينية تفسيرًا مناسبًا لها، إلا فيما يخص النظرة الأخلاقية والاجتماعية، ربما لأن الملاحدة الآن في وضع قد تحتم على الداروينية التخلص منهم باعتبارهم الحلقة الأضعف ـ ولو على صعيد السلطة والقوة ـ فطبقًا لنظرية البقاء للأصلح لا وجود للملاحدة بيننا، مع ذلك فإن بعض كتابات الملاحدة الجدد تفصح عن الوجه الشنيع للداروينية الاجتماعية، ذلك الوجه الدموي الذي لا يجامل أحدًا.

قد تنبأ داروين بشكل أو بآخر بهذه النظرية الاجتماعية عندما ذكر في كتابه (أصل الإنسان): إن الأجناس المتحضرة ستبيد الأجناس الهمجية وتحل محلها، كما أبدى قلقه

بالممارسات الحضارية للمجتمعات المتحضرة؛ لأنها تضر بالجنس البشري؛ حيث إنها تقدم العون للأجناس الضعيفة، هذه التنبؤات وإن كانت محدودة إلا أنها تطورت لتشمل تطبيقات عملية مخيفة جدًّا، الْتَهَمَتْ فيها القوى العظمى دولًا وشعوبًا، وقامت بعمليات تصفية عرقية لم يشهدها التاريخ ولن يشهد مثلها إلا إذا تم تبني هذه النظرية القذرة من جديد.

إن النظرية العرقية كما يقول جورج لوكاكش بكل بساطة تنطلق من الأرستقراطية[١]، فالأرستقراطي رجل طاهر العرق = إنه مشتق من العرق الأعلى.

هذه النظرة لم يستطع تحملها أكثر المفكرين العنصريين جرأة على وجه الأرض، كان لا بدَّ من أن تعيد العرقية والعنصرية تشكيل نفسها لتظهر في صورة أكثر إقناعًا للرأي العام، يقول جورج لوكاكش: «حتى تصبح العرقية الأيديولوجيا المهيمنة للرجعية، عليها أن تخلع غلافها الإقطاعي وأن تتخذ هيئةَ علمٍ حديثٍ، ليست القضية هنا تغير ديكور وحسب؛ بل هي تحول في الطابق الطبقي للنظرية العرقية الجديدة. إنها مكرسة في شكلها الحديث للدفاع عن الامتيازات الطبقية بمساعدة حجج بيولوجية زائفة، لم تعد

(١) كلمة تعني باليونانية: حكم الأفضل، ويقصد بها الإشارة إلى الطبقة الاجتماعية التي تمتاز ببعض الصفات الخاصة دونًا عن باقي الطبقات في المجتمع.

المسألة فقط مصير النبالة التقليدية؛ بل امتيازات العروق الأوروبية إزاء الشعوب الملونة، امتيازات الشعوب الجرمانية - خاصة الشعب الألماني - إزاء الشعوب الأوروبية الأخرى «أيديولوجيا للسيطرة الألمانية»[١]

ظهرت هذه الداروينية الاجتماعية في أنصع صورها على يد الرايخ الألماني، ظهرت بلا مجملات ولا تقية، ظهرت لتكشف عن الوجه البغيض للداروينية ولتشكل أزمة حقيقة لنظرية داروين ومن يتبناها، هذه الأفكار التي تجد تبريرًا مقنعًا لدى الدوائر الداروينية لأنها تتخذ «قوانين طبيعية لا يمكن بالتالي تلافيها ولا إلغاءها، كل الأهوال التي يسببها النظام الرأسمالي[٢] مبررة هكذا بـ«توافقها مع الطبيعة»[٣]، هذه النظرة التي كانت بادية بشكل واضح في الكتابات الألمانية، وتأثرها بنظرية داروين القائمة على فكرة الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، هي التي دفعت ألمانيا لتطبيق نظرية داروين على المجال الاجتماعي.

---

(١) تحطيم العقل (٤/ ٧٠) بتصرف يسير.

(٢) ترى الفلسفة الماركسية أن المشكلة الأساسية هي مشكلة اقتصادية بحتة متمثلة بالنظام الرأسمالي الذي يقوم بدوره بطحن الطبقات غير مكترث بأي مبادئ أخلاقية حقيقة، لذلك ترجع الماركسية الصراع العالمي إلى الجشع الرأسمالي.

(٣) تحطيم العقل (٤/ ٧٤) بتصرف.

في عام ١٩١٢م نشر فريدريك فون بنهاردي وهو جنرال ألماني، كتابه تحت عنوان: «ألمانيا والحرب القادمة»، هذا الكتاب الذي حمل رؤية تطورية بحتة مفادها: أن الصراع لأجل البقاء هو أساس أي تطور صحي في قانون الحياة، ولذلك؛ فإن الحرب هي ضرورة بيولوجية[١].

إنها ليست فقط مجرد نظرية، ولكنها ضرورة؛ أي: أن الألمان كانوا ينظرون إلى أنه يتوجب عليهم تطبيق هذا المفهوم، هذا التطبيق الذي أدى إلى مقتل عشرات الملايين من الجنس البشري.

لم تقتصر هذه التطبيقات على مجرد الحروب؛ بل انتقلت لتكون طريقة ممنهجة للتخلص ممن هم أدنى مرتبة من الشعوب الجرمانية. مستشفى «هادامار» أحد مراكز القتل بالغاز للتخلص من المعاقين جسديًّا أو عقليًّا، تم قتل ما يزيد عن ١٥ ألف مريض بنظرة داروينية مقيتة لتنقية الشعب الجرماني واصطفائه.

في ناميبيا وفي عام ١٩٠٤م تقوم القوات الألمانية في بعض مستعمراتها الإفريقية بعملية ممنهجة للتخلص من القبائل الإفريقية، صرح لوثر فون تروثا المسؤول الأول عن هذه

(١) فيلم قصير بعنوان: بيولوجية الرايخ الثاني: الداروينية الاجتماعية وأصول الحرب العالمية الأولى، ترجمة: مركز براهين:
https://www.youtube.com/watch?v=erL1_aQIzDE

الإبادة، بأن مبادئ الداروينية الاجتماعية تحتم عليه هذه الإبادة، ولا ينبغي للعاطفة البشرية أن تقف في وجه قانون البقاء للأصلح.

هذه الشذرات اليسيرة من تاريخ الداروينية المظلم، يمكنها وبكل تأكيد أن تجعلنا نتصور فظاعة ما تمليه النظرة الداروينية على العقل الملحد، إنه ينظر لغيره من الأجناس البشرية بنظرة دونية مهما حاول أن يغطيها لكنها بادية بكل تأكيد، ليس عليك إلا أن تنظر عبر التاريخ إلى علاقة الشعوب الغربية بالمجتمع الإفريقي، إنهم لا يتعاملون معهم على كونهم أكثر من قردة تلهو في القارة الإفريقية.

إذن؛ فإن الإلحاد لا يمكن له أن يقدم لنا ضمانة للحياة البشرية بعد تبنيه نظرية التطور، هذه النظرية التي تُعد نظرية فلسفية بالدرجة الأولى، تهمش كل شيء أخلاقي في سبيل الحفاظ على نفعيتها ونظريتها العرقية التي تنظر بها إلى المجتمع الإنساني.

قد يظن البعض أن الاستخدامات الاجتماعية والفلسفية لنظرية التطور قد انقرضت، ولا يمكن لها أن تستخدم مرة أخرى في هذا المجال لما أثبتته من فشل ذريع في قيادة العالم الإنساني، ولكننا نعود ونكرر، ما الضمان الذي يقدمه الملاحدة لعدم تكرار هذه النماذج البائسة في تاريخ البشرية؟

لا ضمانة أبدًا؛ بل إننا نجد بوادر العرقية والعنصرية تفوح من أفواه الملاحدة الجدد، انظر إليهم وهم يسخرون من المتدينين، ينظرون إليهم بدونية قبيحة، يصورونهم على أنهم لا يفهمون شيئًا ولا يفقهون.

عندما سئل كريستوفر هيتشينز عن سؤال تسبب الإلحاد والشيوعية في المجازر، قدَّم نقدًا ساخرًا وشرسًا، وزعم أن: «هؤلاء الذين قاموا بالمجازر من ستالين إلى كوريا الشمالية وإلى الصين هي مجازر قد قامت استنادًا إلى أفكار دينية، وأن كوريا الشمالية هي أكثر الدول تدينًا على سطح الأرض؛ كذلك الأمر ينطبق على «ماو» فقد جاء من خلفية عقائدية، ثم طلب من السائل أن يأتي له بمثال واحد على وجود دولة علمانية، اتخذت أفكار داروين والعلم منهجًا لها، ونحت السلطة الدينية جانبًا، ثم حصل فيها مجاعة أو مجازر أو عبودية أو تعذيب، وأشار أيضًا إلى أن الكنيسة كانت داعمة لستالين؛ فالإشكال كله في مفهوم العبودية لله، العبودية هي أساس المشاكل»[١]

عجيب تلك الجرأة التي يتمتع بها هيتشينز؛ كأن الألمان لم يتبنوا الأفكار الداروينية؟ وكأن متحف داروين الذي في موسكو شيّدته الكنيسة؟ إن عاقلًا لا يمكن بحال أن

(١) https://www.youtube.com/watch?v=uQyvPANfCxM

ينكر تبني هذه الأنظمة العالمية لفكر داروين في تلك الحقبة؛ بل وانطلاق نظرياتها العالمية من فكره وتطبيقه على المستوى الاجتماعي.

إنه يشير إلى أن العبودية هي أساس المشاكل، إنه يزعم أن الكنيسة كانت هي الداعمة الأولى لستالين إنها سبب في كل هذا الدمار، إنه الدين! حسنًا، سأكتفي هنا باقتباس كلام لدوكنز؛ حيث يقول: «من الممكن أن أستسلم لإرادتك.. لأني أخاف من بربريتك! لكن لا تعتقد للحظة واحدة أن هذا ناتج من الاحترام، أنا لا أحترمك أنا أحتقرك!».

إن أي تفسير لوقوف الكنيسة بجانب ستالين هو تفسير ينبغي أن ينطلق من هذه الكلمات التي نطق بها دوكنز، بكل تأكيد.

نعود للسؤال المحوري: هل الإلحاد قادر على أن يقود العالم؟

إن فكرًا بلا أصول ولا مبادئ، فكر متحوّل وسائل، لا يمكن له أن يقدم رؤية واضحة عن هذا العالم وعمَّا هو مهم أو هامشي، إن كانت نظريته لكل الأمور عشوائية، فكيف له أن ينظم لنا أمور هذا العالم الذي يعج بالأسئلة والإشكالات الفكرية، اقتصادية كانت أو سياسية، فلسفية أو حتى علمية، إن الإلحاد لا يملك رؤية عن أي شيء، إنه

يبحث عن القطة السوداء في غرفة مظلمة، ثم فجأة يصرخ قائلًا: أمسكتها! في حين أن القطة ليست موجودة في هذه الغرفة أصلًا!

«لا يوجد ملاحدة في الخنادق»!

هذه الجملة تلخص لنا خواء الملاحدة من أفكار محورية تشد اهتمام الجنس البشري لاختيارهم كقادة لهذا العالم، إن هذا الخواء هو الذي يشكّل هاجسًا للكائنات البشرية: ما الذي سيفعله بي هذا الرجل إن تمكن من رقبتي؟ ربما «مزحة» سام هاريس تجعلنا نتخيل ظلامية هذا الفكر عندما اقترح ضرب المسلمين بقنبلة نووية على سبيل الاحتياط!

إن الملاحدة الجدد متعطشون لرؤية الدين يزول، في مقابلة لريتشارد دوكنز[١] يقول: «حقًا، أتمنى أن أشاهد الدين يختفي من الوجود»، إنه يتمنى وهو في بيته، فما بالك لو تمكن من الأدوات التي تساعده على قمع الدين؟ أتصور أن المسألة ستكون كارثية.

---

(١) https://newrepublic.com/article/115339/richard-dawkins-interview-archbishop-atheism

هذا الحس الإرهابي الذي يتمتع به الملاحدة الجدد، يمكننا أن نستشفه في تعامل الملاحدة مع أنصار «التصميم الذكي» فالإرهاب الذي تعرض له هؤلاء غني عن التعريف به، لقد قام أنصار داروين بجر هؤلاء إلى المحاكم لإسكاتهم وزجرهم عن الحديث في أي شيء يقضُّ مضاجع الإلحاد المستند على نظرية التطور.

يقول ريتشارد دوكنز: «أما الدين فهو قائم على تحويل أفكار غير مجربة إلى حقائق، وذلك من خلال استخدام قوة المؤسسات..»[١] لعل هذا ينطبق أيضًا على الملاحدة الجدد، إنهم يقومون بنشر نظرية التطور عبر استخدام المؤسسات وقمع الأفكار العلمية المناهضة لها، بيد أنهم أخفقوا في إظهار شيء من التماسك أمام أنصار التصميم الذكي؛ بل إن دوكنز يعترف بأن نظرية التصميم الذكي قد تكون قابلة للبرهنة بشكل أو بآخر، ولكنه مرة أخرى يعود وينحي جميع الاحتمالات جانبًا، الإله لن يكون هو المصمم الذكي[٢]! هذا الخطاب الذي يشعر بعمق الإشكالية التي يتعرض لها الملاحدة في محاولاتهم لحماية الحصن الأخير

---

(١) وثائقي بعنوان: «أصل الشرور» الدقيقة التاسعة.

(٢) قال ذلك في مقابلة له مع «بين ستاين» في الوثائقي الشهير: مطرودون: غير مسموح بالذكاء.

(Expelled: No intelligence allowed)

يفصح عنه مايكل روس في رسالة وجهها إلى دانييل دانييت وريتشارد دوكنز؛ حيث يقول: «أعتقد أنك وريتشارد دوكنز تمثلان كارثة حقيقة في الحرب ضد فكرة التصميم الذكي، إننا نخسر المعركة..»[1] هذا الشعور بالهزيمة في معركة يقودها التطوريُّون في مواجهة أنصار التصميم الذكي، هو الذي يدفعنا للقول: إن الملاحدة الجدد يفقدون آخر حصونهم التي يتحصنون بها، إن «الباستيل»[2] يسقط من جديد!

---

(١) نقلتها عن كتاب ميليشيا الإلحاد: عبد الله العجيري (ص٥٥).

(٢) الباستيل هو حصن مشهور في فرنسا، استخدم ليكون سجنًا للمعارضين، سقط إبان الثورة الفرنسية.

خاتمة

في بعض الأحيان تؤدي الوثوقية الزائدة إلى انحراف المسار، إلى السير بالمقلوب باتجاه الأمام، إلى العمق باتجاه السطحية؛ حيث تنمو هناك كل المفاهيم التي ستؤدي إلى الأزمة.

بالتمسك بهذه الوثوقية، أنت تغرق باتجاه الشاطئ، تطفو في قعر المحيط، كل شيء غير مفهوم وغير مبرر..

كل ما في الأمر، هو أنه لا يمكن لك أن تكون واثقًا لهذه الدرجة؛ لأنك كلما ازددت وثوقية بهذا الخواء المعرفي والتلاشي المنهجي؛ فستنزلق خارج الخط بدون أن تشعر، ستجد نفسك وحيدًا في ذلك الظلام الذي يشظي كل معرفة.. ستقف بعيدًا عن بقعة الضوء، بقعة الضوء = أن تكون إنسانًا!

الملحق (١)

حتى لا يكون خطابنا الديني في أزمة

إن من طبيعة الأفكار والعقائد ألَّا تعيش على سبيل واحد تستقي منه أفكارها، فلا بدَّ من معارضات فكرية وخطوط معارضة لها؛ سواء قيَّمناها على أنها تستحق النقاش أو لا، إلا أن هذا أمر واقع لا محالة، فلا بدَّ لنا أن نتعامل معه.

في حالتنا هذه ـ فرضية الإلحاد أعني ـ ظهر في مقابلتها تيارات مختلفة تهدف إلى إخماد هذه الثورة والرد على هذه الشبهات المثارة، ولكن هل جميع هذه التيارات التي تصدرت للرد على الإلحاد تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار؟

إن المقياس السليم لتقييم الأفكار الدفاعية، ينبغي أن ينظر إليه بمقياس يجب أن يحوي مدى محافظة هذه الدفاعية على الأفكار الأساسية للفكر المنافح عنه؛ وأيضًا فعلى هذه الأفكار الدفاعية ألَّا تزيد من ضبابية النقاش؛ بل عليها أن تكون واضحة ـ مباشرة ـ وتشفي الغليل.

ولكن ماذا لو كان هذا الدفاع شكليًّا؛ بمعنى: أنه يتنازل عن الثوابت والأصول، أو أنه يضلل النقاش ويبعده، أو يزيد تشويهًا للأفكار المنافح عنها؟ لا شكَّ أن التقييم لن يكون مرضيًا البتة.

إن الحالة الإلحادية استطاعت أن تؤثر على المنظومات الفكرية الأخرى حتى جعلت أعتى المؤسسات الدينية شراسة تتنازل عن بعض ثوابتها العقدية إرضاء لبعض الأطروحات الإلحادية، كما هو الحال مع الداروينية والكنيسة[1]

هذا التأثير طال بطبيعة الحال الخطاب الإسلامي بصور متعددة، يمكن أن تلخص بأمرين:

١ ـ أسلوب الطرح.

٢ ـ المضمون.

وسنتناول كلًّا منها بشيء من التفصيل.

(١) سنتحدث بعد قليل عنها بشيء من التفصيل.

أولًا:
تأثير الحركة الإلحادية على أسلوب الطرح الديني

إذا استفززت المؤمن بأخص عقائده؛ فإن ذلك سيدفعه للرد بلا شك، هذا الرد إن لم يكن مدروسًا فإنه سيؤدي إلى كوارث حقيقة بلا شك لن تساعد أبدًا في حسم هذا النقاش؛ بل ستفتح آفاقًا أخرى للملحد وتنشئ له أعذارًا أخرى للتمسك بإلحاده، وهذا الخطاب الديني السلبي يخرج على صورتين اثنتين: إما أن يخرج بصورة وثوقية عالية، وإما أن يخرج بصورة ابتذال وضعف شديدين، وكلا الأمرين ذميم، وحتى يتضح الأمر، علينا أن نستعرض بعضًا من النقاشات الدينية التي تجسد لنا هذه الصور المبتذلة التي لا تساعد أبدًا في تعزيز الموقف الديني.

«لحظة سكون» برنامج خصص في شهر رمضان في عام ٢٠١٤م للحديث عن ظاهرة الإلحاد، التقى عددًا من

الملحدين الشباب، وحاول أن يحلل هذا الخطاب، وأن يرد على أهم الشُّبَه التي تثار حول الدين، هذا البرنامج كان يعاني من إشكالية ظاهرة جدًّا وهي التودد الزائد، هذا التودد الذي يحيد بالنقاش عن مركزيته وإشكاليته العظمى وهو إنكار كبرى اليقينيات، هذا الإنكار الذي معه ينسف قواعد التودد والصداقة التي ينادي بها هذا البرنامج!

في بداية الحلقة الأولى يطرح المذيع سؤالًا على الحبيب الجفري فيقول: «هل من حقي أن أقول أني سأصطحب من أصدقائي الملحدين لأقدم إليك أفكارهم لنتحاور حولها؟»

يجيب الجفري: «كلمة صديق مأخوذة في اللغة العربية من جذر له علاقة بالصدق، وله علاقة بقوة الارتباط؛ فكل شخص بيني وبينه صدق في الصلة وقوة ارتباط فهو صديقي، فالصديق الملحد إن كانت بيني وبينه علاقة؛ أي: صدق في الصلة: لا نكذب على بعضنا البعض وفي قوة الارتباط الإنساني فلا شك أنه صديقي الملحد، لهذا الدكتور مصطفى محمود كتب كتابه المشهور: «صديقي الملحد» «ثم يقول بعد فاصل تعريفي بأحد الشخصيات الإلحادية وهي: أحمد حرقان، يقول الجفري: «**أولًا**: أخي أحمد حرقان ليس بصديقك وحدك هو صديقي أيضًا، وقد جلست إليه جلسة واحدة وإن شاء الله أتشرف بالجلوس إليه أكثر من مرة، هذا الشاب أنا احترمه احترامًا كبيرًا، وسبب الاحترام أنه اختار أن يكون صادقًا مع نفسه في

اللحظة التي قرر فيها أن يترك الدين وترك كثيرًا من الأمور التي كانت بالنسبة له صمام أمان لحياته ومعيشته، ترك عمله كإمام وخطيب وعمل «نقّاشًا» حتى لا يأخذ مالًا من عمل يخدع به الناس، فهذا الشاب بارك الله فيه صاحب مبدأ».

لست أدري ما سر هذا التودد مع شخص لا يتلفظ إلا بكل سوءٍ على رسول الله ﷺ، بينما إذا تحدث الجفري عن المشايخ والعلماء وبالخصوص التيار السلفي انتفخت أوداجه وبدأ بالصراخ والزمجرة!

هذا الخطاب الضعيف الهش، الذي ابتدأ من إشكالية كبرى وهي إشكالية الصدق والأخلاق والأواصل الإنسانية بينه وبين الملحد، هذه الأواصل التي لا تجد مكانًا عند أصول الملحد الفكرية، بناها الجفري وشيّد عمرانها ليبعث الطمأنينة في قلب الملحد أنه «صادق مع نفسه»!

يكمل الجفري هذه السلسلة من الهشاشة الخطابية لينقل عنه أحد من جالسه من الملحدين في جَالَسَهُ وصفت بأنها كانت جلسة إنسانية ثقافية وفكرية رائعة، فيقول: «يبدو أن احترام كثير من الملحدين للشيخ الحبيب الجفري لا ينبع من كونه رجل دين متنورًا أو متسامحًا بقدر ما أنه رجل دين متصوف لا يزعم احتكار الحقيقة المطلقة وكثيرون يعرفون الشعرة التي تفصل بين الإلحاد والتصوف. . فقد قال لنا الحبيب

الجفري أنه لولا دراسته الدقيقة للإسلام لكفر مثلنا بالدين بسبب تصرفات الجماعات والتنظيمات الإسلامية..»[1]

لا أصدق أن جون لوك كان أكثر فطنة لخطر الملحدين من الجفري؛ حيث نبَّه إلى أنه لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الذين ينكرون وجود الله؛ فالوعد والعهد والقسم، من حيث هي روابط المجتمع البشري ليس لها قيمة بالنسبة للملحد! الأمر الذي لا يوليه الجفري أي أهمية في خطابه مع الملحدين، هذه الطريقة تبني للملاحدة صرحًا موازيًا للصرح الديني، بمعنى: أن الملحد الآن يشعر بشرعية هذا الانحراف الفكري الذي يقوم به، وسيجعله أكثر جرأة على اقتحام الخطوط الحمراء، ولنا أن نسأل: ما الذي دره الجفري من فوائد على الخطاب الديني، أثناء تعامله بهذه الطريقة المبتذلة مع الإشكالية الإلحادية؟ انظر إلى أحمد حرقان وهو يتبجح على قناته على اليوتيوب في سب النبي ﷺ، والطعن في الدين، كل هذا هو نتاج الخطاب المريح الذي تصدر به الجفري وأمثاله في التعامل مع الملحدين! إن الجفري هنا يصدق عليه قول نيتشه: «لقد كسب الجمهور، وأفسد الذوق»[2]

في لقاء على قناة الجزيرة الإنجليزية، يقوم مهدي حسن

---

(١) http://ahmedaldosoky-sora.blogspot.com/2014/06/blog-post_27.html

(٢) قضية فاغنر ويليه نيتشه ضد فاغنر، فريدريش نيتشه، (ص٦٤٤).

ـ الصحفي المعروف ـ باستضافة ريتشارد دوكنز، يلقي دوكنز بشباكه كعادته، ويصطاد بعض المواقف الركيكة من المسلمين المتصدرين هناك:

ـ دوكنز: «هل تؤمن فعلًا أن محمدًا طار على حصان مجنح إلى السماء؟»

ـ مهدي حسن: «نعم أنا أؤمن بهذا».

ـ دوكنز متعجبًا: «أنت تؤمن بذلك؟ تؤمن بأن محمدًا طار في السماء؟»

ـ مهدي: «نعم، دعنا نفترض أني على خطأ، ريتشارد»

ـ دوكنز مستهزءًا: «نعم نعم، دعنا نفترض ذلك».

يكمل دوكنز أسلوبه في السخرية من حادثة الإسراء والمعراج، يصل إلى الحديث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فيعود ليوجه السؤال لمهدي حسن، فيندفع مهدي لينكر ذلك: «الإسلام لا يعلمنا ذلك»، فيجيب دوكنز: «أنا سعيد لسماعي بهذا»!

مع أن لمهدي حسن مواقف قوية أثناء حواره مع بعض الملاحدة في رواق أوكسفورد، خصوصًا فيما يتعلق بالإرهاب واتهام الإسلام بأنه المسبب الأول له، إلا أنه بدى ضعيفًا جدًّا هنا، ضعيفًا لدرجة الشفقة، إن هذا الخطاب الضعيف في محاولة إنزال المسلَّمات الإسلامية إلى درجة الممكنات

«والافتراض بأنه خطأ» هو خطاب ركيك يدفع المُدافع عن الدين إلى النزول إلى رغبة الملحد في جعل هذه المسلمات محلًّا للنقاش والاستهزاء، وهذا أمر مرفوض أيضًا لا ينبغي أن يكون؛ فالأمر كله يكمن في المثل المعروف: «خير وسيلة للدفاع الهجوم».

على الجهة المقابلة من أساليب الطرح، ينفر لدينا بعض الناس فيفهمون الهجوم بعكس ما ينبغي أن يفهم، إنهم يهجمون هجومًا بربريًّا لا يأتي بخير.

يظهر لدينا بعض الدعاة المتصدرين ليردوا على الإلحاد، هذا الرد في حقيقة الأمر يكون تغذية لمراد الإلحاد وهو الحصول على مرابض يجتمع فيها تشويه الإسلام.

يخرج علينا وجدي غنيم في سلسلة للرد على «أكذوبة الإلحاد» وليته لم يفعل، فهي مليئة بالابتذال والسخرية والتعالي، هذه الأساليب أضافها إلى بعض مقاطعه التي فيها إطلاقات خطيرة جدًّا فيما يخص بعض المواقف الدينية والتي تظهر تعنتًا وجرأة في التكفير، هذه المواقف شكَّلت للخطاب الإلحادي شيئًا من المخزون الذي يستخدمه لضرب الإسلام والتأكيد على أنه دين دموي وإرهابي وأن دعاته هم عبارة عن مجموعة من السفهاء الذين لا يأخذون أي قضية على محمل الجد.

ثانيًا:
تأثير الحركة الإلحادية على المضمون الديني:

إن المضامين الدينية كانت ولا تزال عرضة للدس والتبديل، وهذا الدس والتبديل إنما يظهر لسبب أساسي وهو التأثر بالخطابات المعادية، ولا داعي لأن نضرب أمثلة على ذلك، ولكن ينبغي علينا أن نتنبه إلى أن المسلم أو الداعية كلما كان أقرب لفهم هذه المضامين كلما قلَّت نسبة حصول التبديل والدس فيها، وكلما كان أبعد عن فهم حقائقها كان إلى الدس والتبديل أقرب منه إلى التثبيت، ولك أن تتخيل التتر والمغول عندما أطاحوا بعاصمة الخلافة وقد كانوا على ديانات مختلفة من الطوطمية والشامانية[1]، مع إسقاطهم

(١) الطوطمية هي ديانة مركبة من الأفكار والرموز والطقوس تعتمد على العلاقة بين جماعة إنسانية وموضوع طبيعي يسمى الطوطم، والطوطم يمكن أن يكون طائرًا أو حيوانًا أو نباتًا أو ظاهرةً طبيعية أو مظهرًا طبيعيًّا مع اعتقاد الجماعة =

للدولة العباسية واستباحتهم لملايين المسلمين، إلا أن التأثير الثقافي كان عكسيًّا، بمعنى: أن المسلمين هنا وهم المستَعمرون قد أثروا فكريًّا على المستعمرين فاعتنق التتر الإسلام وحسن إسلام الكثير منهم، هذا الأمر الذي دفع بتوماس أرنولد أن يبدي استغرابه؛ حيث قال: «... ولكن لم يكن بدٌّ من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده الخالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه، ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين، كانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار، وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كل ديانة تنافس الأخرى، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار

= بالارتباط به روحيًّا. وكلمة طوطم مشتقة من لغة الأبجوا الأمريكية الأصلية، وأما الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي آسيا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف. وأن هذا العالم لا يستجيب إلّا للشامان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث. (ويكيبيديا)

والأقاليم»[1] في رأيي أن هذا التأثير العجيب كان أساسه الفهم العميق الواضح المتجذر في أنفس أولائك الدعاة المسلمين، فلم يقاسوا أية إشكاليات في طرح الدين ومحاولة تمييعه ليناسب المزاج التتاري العام.

اليوم ومع ظهور الموجة الإلحادية الجديدة والتي تقوم بالاتكاء على الداروينية بشكل أساسي، استطاع الإلحاد من أن يحدث إرباكًا شديدًا في صفوف بعض الدعاة من النصارى والمسلمين عبر استخدامه هذا العلم التجريبي بطريقة غير موضوعية البتة[2]، فقام هؤلاء الدعاة بتطويع المضمون الديني ليوافق المزاج الدارويني العام، هذا التوظيف كان ناشئًا من عدم الثقة في المضامين الدينية المطروحة بشكلٍ أو بآخر.

هذا التطويع لم يتوقف عند مجرد طرح الآراء، بل تمدد حتى يصل إلى اعتبارها عقيدة أصيلة متوافقة مع الرؤية الدينية ـ النصرانية على الأقل ـ عبر معاداة من يقف في وجه هذا الطرح، إن المثل المشهور: مَلَكي أكثر من الملك، قد

---

(١) نقلًا عن مقال على موقع قصة الاسلام:
http://islamstory.com/-%D8%AF%D8%AE%D9%88%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D9%88%D9%84-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85

(٢) انظر: الملحق ٢.

أضحى يعرف بـ: دارويني أكثر من الداروينية، قد تجلى هذا المعنى بين بعض أنصار نظرية ما يعرف بالتطور الإلٰهي، وهنا بدأ الصراع.

في مقال منشور في مركز براهين، كتبت عائشة محمد مقالًا تبيِّن فيه عمق هذه الإشكالية وتحت عنوان: «التصميم الذكي والتطور الإلٰهي، صداقة أم عداء؟!» تقول:

«الصراع بين منظري التصميم الذكي وأنصار التطور الإلٰهي قديم ومستمر، لعل أشهر ما حدث مؤخرًا في هذا المسلسل هو مناظرة (من وراء كل ذلك؟!) والتي دارت في تورنتو بكندا في أواخر مارس ٢٠١٦م، بين د. ستيفن ماير (فيلسوف العلوم وأحد أشهر مُنَظِّرِي التصميم) من جهة، ود. لورانس كراوس (الملحد الفيزيائي الشهير) من جهة، وثالثهم في المناظرة د. دينيس لامورو (أحد مُنَظِّرِي التطور الإلٰهي). وكما هو متوقع كان لامورو الكاثوليكي في صف كراوس الملحد ضد ماير منظر التصميم.

وبالطبع ليست هذه أشهر حلقات الصراع؛ فالحدث المحوري في تاريخ صراع التصميم الذكي مع التطور عمومًا والتطور الإلٰهي خصوصًا، هو قضية كيتسميللر ضد إدارة مدرسة دوفر في ٢٠٠٥م. دكتور كينيث ميلر لمن لا يعرفه هو أستاذ البيولوجيا بجامعة برينستون وهو مسيحي كاثوليكي

وأحد أشهر منظري التطور الإلٰهي في أمريكا، وكذلك أحد أشهر معارضي حركة التصميم الذكي عمومًا.

والقصة باختصار أن إدارة المدرسة قررت أن تلقي بيانًا مختصرًا على الطلاب لإعلامهم بأن الداروينية ليست هي النظرية الوحيدة التي تحاول تفسير نشأة الحياة والأنواع، وأن هناك نظرية علمية أخرى تسمى: «التصميم الذكي» تقدم تفسيرًا مختلفًا، كان هذا الأمر كافيًا لكي يتم تحريك دعوى قضائية ضد إدارة المدرسة لاتهامها بتدريس الدِّين في حصة العلوم. وتبع الأمر حربٌ إعلامية ليس على إدارة المدرسة فقط، وإنما على كل مُنَظِّرِي التصميم الذكي. وبالفعل أقيمت الدعوى واستدعت المحكمة ميلر كشاهد وكذلك استدعت الدكتور مايكل بيهي كشاهد أيضًا، وقدم بيهي طرحه الذي يرى أنه يثبت أن التصميم الذكي أطروحة علمية، وكعادته قام ميلر بكل ما يستطيع فعله من محاولات لخداع المحكمة وإبطال حجج بيهي»[1]

ولكن ماذا عن المناصرين للتطور الإلٰهي من المسلمين، ما هو موقفهم من هذا؟

يقول الدكتور عمرو شريف في كتابه «وهم الإلحاد»: «إذا لم يقدم الخلقيون (القائلون بالخلق الخاص) أدلة علمية

(١) http://www.braheen.com/mag/25 - misc/89 - id-v-te

قوية تنفي حدوث التطور؛ فإن في القول بالتطوير الإلٰهي مخرجًا وجيهًا وصحيحًا من وجهتي النظر العلمية والدينية»[1]

هذا التخيير بين أمرين لا ثالث لهما، يقتطع جزءًا كبيرًا من النقاش وهو: ما مدى صلاحية هذا السؤال؟

إن هذا السؤال يطرح فرضية معينة وهي أن النظرية العلمية قد تعارض نصوص الوحي الشريف، ولكن هل الجواب عن هذا السؤال يصح ترجمته إلى أرض الواقع فَيُنْشِئ نظرية وتهدم اعتقادًا شبه متواتر، فقط لأن ثمة احتمالية مزعومة بحصول تعارض يومًا ما بين النظرية وبين نصوص الوحي؟ هذه الفوبيا من التطور وأن يتطور هو الآخر لِيَلْتَهِم الدين ومعتقداته تعشعش في عقول الداروينيين المتأسلمين بشكل واضح!

ماذا لو طرح أحدهم سؤالًا، وهو: ماذا لو ظهر نبي بمعجزات ومعه وحي من السماء على أنه نبي بعد رسول الله ﷺ، ماذا سيكون موقف المسلمين من هذا التعارض بين ظهور نبي جديد وبين النصوص الدالة على ختم النبي ﷺ؟

ولكن الجواب الأمثل سيكون هو: أن هذه الفرضية غير ممكنة أصلًا؛ لأن نصوص الوحي هي المهيمنة على

---

(١) (ص٨٣).

افتراضات العقل، وليس العقل هو من يهيمن على نصوص الوحي؛ فالمقصود هو أن توهم التعارض ابتداء هو توهم غير سليم بالمرة، ولا يجب أبدًا أن يُتَرْجَمَ إلى أمور عملية على الأرض، فالنصوص المحكمة تصبح متشابهة، وتبدأ آلة العبث التأويلية تلعب بالنصوص يمنة ويسرة؛ لأجل أن تهدئ بالكذب وهمًا يقبع في نفوس بعض المتشككين؛ فالقرآن الكريم قد ميز عن غيره بميزة المحكم والمتشابه، وهذه المحكمات لا تتغير بتغير الزمان والمكان والحال، أما النصوص المحرفة فلا يضبط فهمها عقال.

لذلك؛ تجد أن الداروينيي المتأسلم هو يشكل حالة من حالات اللاأدرية في هذا الجزء تمامًا؛ فكثير منهم يرى أن الأدلة متكافئة فلا بدّ من إيجاد حل يرضي جميع الأطراف، فتجد عنده تخبطًا واضحًا فيما يخص هذه المسألة لذلك يحتم عليه هذا الموقف أن يقف موقف الاحتواء، ويمتنع من الهجوم.

نعود للدكتور عمرو شريف، وفي مناظرته مع أحد الملاحدة العرب ففي الأسئلة التي تتعلق بوجود الخالق تجد رد الدكتور عمرو كان يتخذ موقف المهاجم وبقوة، بيد أنه لمّا كان الحديث عن مسألة نشأة الإنسان وتطرق الأمر للتطور ظهرت النبرة التسامحية تحت عنوان «أنا أوافق الطرف الآخر في كل ما يقوله باستثناء: إنها تطوير وليست تطور».

هذه الطريقة لن تفلح أبدًا بل ستفتح آفاقًا جديدة من الإشكاليات، تخيل أن ملحدًا ناقش داروينيًّا متأسلمًا، وكان النقاش الأساسي حول التطور ونظرة الدين؛ فقدم المسلم نظرته عن نظرية التطوير، أظن أن جواب الملحد سيكون بسيطًا وسهلًا: هذه وجهة نظرك الخاصة، ولكن وجهة نظر عموم علماء الدين مخالفة لما تقول!

هنا ستتفتح آفاق أخرى ومستويات أخرى للنقاش لا ينبغي لها أن تكون، فما يظنه الدارويني المتأسلم حلًّا، ليس كذلك.

يجب أن تكون العقائد الدينية مهيمنة ومسيطرة على الخطاب لا العكس، وأنا أقول: عقائد وليس التشريع؛ فالتشريع في كثير من أموره يرجع إلى العرف وإلى أهل العلم من الأطباء وعلماء المخابر، ولكن باب العقائد هذا بابٌ مُفَصِّلُ الدين فيه هو المهيمن بلا شك، فالذي يجري الآن بطرح نظرية التطوير هو جعل عقائد الدين تابعة لنظرية علمية تجريبية، وهذا ينافي طبيعة العقائد الدينية التي تعتبر حقائق يقينية بخلاف النظريات العلمية فهي تبقى فرضية أو نظرية؛ فإنزال الدين من مستوى أعلى إلى آخر أنزل هو خطأ شنيع لا ريب فيه.

ولا يمكن أن يحصر النقاش في باب البحث المخبري أو التجريبي فقط؛ بل إن القول بنظرية التطوير تأبى هذا

أصلًا؛ فهي تنتهي إلى استخدام الميتافيزيقيا في فك إشكاليات وفجوات التطور.

خطورة هذا الخطاب يكمن في أنه يواكب الحالة الانهزامية الفكرية العامة في الوسط الإسلامي؛ فالمسلمون اليوم يبحثون عن مهرب ومخرج من التصادم الفكري بينهم وبين أنصار التطور من الملاحدة، هم ببساطة يحاولون ترويض النقاش بينهم وبين الملاحدة فيما يخص هذا الباب، لذلك لا عجب أبدًا من اتباع كثير من الشباب لهذا النمط من أنماط الخطاب لأنه يشبع عندهم هذا الخوف.

بعيدًا عن مناقشة شُبَه الداروينيين المتأسلمين، وأنهم يحاولون إرغام الداروينية على النطق بالشهادتين؛ فإن جر الخطاب الإسلامي في مواجهة الإلحاد إلى هذا المستوى من مستويات الخنوع في قضية مركزية تشكل تحدّيًا للعقائد السماوية هو جر إلى الهاوية لا ينبغي أن يكون.

إذن، حتى لا يصبح خطابنا الديني في أزمة، علينا أن نعيد النظر في مضامين الخطاب وأساليبه لتوافق حقيقة الدين دون طمس لأصوله أو إسراف في فروعه، وحتى يكون الدين كله لله.

الملحق (٢)

«كان كتاب (الباندا والبشر) أول كتاب يعرض التصميم الذكي كبديل علمي عن التطور الدارويني؛ بظهور كتاب (الباندا والبشر) الذي حاول استخدام نفس الطرائق المستخدمة في العلم؛ حيث تقيم هذه الطرائق، الفرضيات في ضوء الدليل، وتؤكد على أن كل الفرضيات العلمية ـ حتى الراسخة منها ـ خاضعة للنقد والرفض في ضوء الأدلة الجديدة، فتحافظ هذه الطرائق العلمية على نزاهة العلم، وتتأكد من أن نتيجة التحريات العلمية ليست مقررة سلفًا..»

من مقدمة كتاب تصميم الحياة

د. ويليام ديمبسكي ـ د. جوناثان ويلز

هذه الكلمات تختصر لنا إشكالية الإلحاد التي حاولنا أن نسلِّط الضوء عليها، إشكالية التعامل مع القضايا العلمية على تصور مسبق و«مؤدلج». في هذا الملحق اختصرت ورقة علمية قدمها الرائعان منتصر زكارنة ومصطفى البلبيسي بعنوان: «التوظيف الإلحادي لنظريات العلم الطبيعي»، في هذه الورقة المهمة يسلط الباحثان فيها الضوء على محاور مهمة تكشف زيف الدعاوى الإلحادية في موضوعية

استخدامهم للعلم في أكثر من قضية علمية طبيعية، وقد اكتفيت في هذا الكتاب بنشر ثلاثة محاور أساسية وردت في هذه الورقة الفريدة، قراءة ممتعة.

التوظيف الإلحادي لنظريات العلم الطبيعي

«كما هو المعتاد في حالة كل نظرية علمية جديدة، كان هناك اتجاه من كل فيلسوف نحو تفسير أعمال أينشتاين على نحوٍ يتفق ونظامه الميتافيزيقي، ولأنه يقترح أن المحصلة هي نصرٌ للآراء التي يعتنقها هذا الفيلسوف» برتراند راسل.

مما لا شكَّ فيه أن المنظومة العلمية الطبيعية قد أوصلت الإنسان إلى مرحلةٍ متقدمةٍ من التطور والتقدم مما انعكس إيجابًا على حياته وكيانه، فتقدم الطب موفرًا حياةً صحيةً أفضل، وتقدمت الهندسة فحققت الرفاهية في السكن، واختصار الوقت في السير، وتقريب البعيد في الاتصال، إلى أن أضحى العالم بمثابة قريةٍ واحدة بفعل شبكة عنكبوتية جسّدت ما وصل إليه العلم الحديث من مراتب ربما توصف بالخيال، لكن هذا ما صار إليه الأم، وما كان ليصير إلى ما هو عليه إلّا بتلك المنظومة العلمية التي ضربت جذورها بعمقٍ

في أرضية التأثير الإيجابي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

بيد أن العديد من النّظريات العلمية التي شكّلت تلك المنظومة قد خضعت لعمليات حقنٍ أيدولوجية كثيرة من قبل أغلب المذاهب الفلسفية والأيدولوجيات الدينية الحالية لتبرهن بمنطق العلم التجريبي ـ الذي تضخم تقديسه في عقول النّاس بفعل ما أرفده إليهم من تطور وازدهار ـ أنّها على الحق وأن سواها زيغٌ وضلال، ولقد تولى كهنة الإلحاد كبر هذا المسار، بحيث جعلوا كل نظريةٍ علمية بمثابة الدليل والبرهان على إلحادهم، فمن نظريات الميكانيا الكلاسيكية التي أظهرت الحتمية إلى نظريات ميكانيكا الكم التي شككت بها، ترى الأدلجة بوضوحٍ لا يواربه شك، إنّها أدلجة لا يعنيها التناقض بين تلك النظريات بقدر ما يعنيها البرهنة على الأيدولوجيا، ودعوى أنّ لا إله والحياة نتيجة صدفة عشوائية عمياء.

لذا؛ فإنّا ارتأينا أن يكون موضوع بحثنا الختامي لبرنامج صناعة المحاور موضوعًا يسلط الضوء على تلك الأدلجة الإلحادية للنظريات العلمية والتي زحفت أدلجتها لفرضياتٍ علمية ما زالت في طور التنبؤ والتخمين. وقد وسمنا بحثنا بوسم «التوظيف الإلحادي لنظريات العلم الطبيعي»، وقد قسّمناه إلى خمسة محاور؛ ثلاثة محاور منه

تشمل النّظريات التي يوظفها الملاحدة، وخاتمة وكانت المحاور كالآتي[1]:

١ ـ التوظيف الإلحادي لنظرية داروين.

٢ ـ التوظيف الإلحادي لنظرية ميكانيكا الكم.

٣ ـ التوظيف الإلحادي لفرضية الأكوان المتعددة.

٤ ـ هل قتل العلم الإيمان بالله؟

٥ ـ درء تعارض العلم الطبيعي مع الدين الإسلامي.

واللهَ نسأل أن يكون بحثنا بحثًا مميزًا مكتوبًا بمداد معرفتنا التي استقيناها من نبع برنامج «صناعة المحاور» الذي جذّر فينا الإيمان بالله (ﷻ) ودين الإسلام العظيم ذلك الدين الذي خاطب كل زاوية في عقولنا فأضاءها بنور اليقين والمنطق، راجين من الله أن ينفع ببحثنا هذا كل قارئ له وأن يجعله باكورة كتاباتنا في نقد الخطاب الإلحادي الحديث الذي نُسج بخيوط عنكبوتية، سرعان ما تُمَزَّقُ بهبوب رياح الحقّ واليقين عليها، والله المسدِّد وهو المستعان والحمد لله ربِّ العالمين.

(١) اقتصرنا في هذا الكتاب على المحور الأول، والرابع، والخامس.

التوظيف الإلحادي لنظرية التطور الداروينية

إن أكثر نظريةٍ «علمية» تعرضت للأدلجة الإلحادية هي نظرية التطور؛ فإنك تجد النظرية بمثابة وتد الخيمة الإلحادية بانهيارها ينهار الإلحاد، فما من ملحدٍ من الملاحدة إلّا ويسوق النظرية في محل التأسيس لإلحاده وكفره بالخالق؛ بل إن عرّاب الملاحدة (ريتشارد دوكنز) في كتابه المشهور: «وهم الإلٰه» قد جعل النّظرية لبّ الإلحاد وقشره، وأنزلها منزل الحقيقة العلمية التي لا تقبل النّقاش، وإنك لترى الحشد الكبير من الأدلة الذي يقف خلف النّظرية تأكيدًا على صحتها وعلميتها؛ فمن الاستدلال المؤول بالأحافير المكتشفة على تأكيد النّظرية إلى جعل التكييف البيئي للكائن الحي ـ والذي يسمّونه تحايلًا التطور الميكروي ـ الحادث في النّوع نفسه دليلًا على التطور الماكروي الكبير الذي يحدث لإنتاج نوعٍ آخر، في مصادرة واضحة وقفزٍ حكمي صريح، عدا عن

الأدلة الحديثة والتعديلات على النّظرية بحيث تولد مصطلح جديد يدعى (الداروينية الحديثة) وذلك نتيجة بعض التعديلات التي تمّ إدخالها على النّظرية لكي تبقى مصبوغة بالصبغة العلمية دون أن تتعرض لنقدٍ أو انهيار، كل ذلك وغيره يقوم به الدراونة من إجل إثبات صحة النّظرية وصيانة لحماها وحفظًا لبيضتها من الاستباحة النقدية التي تحاصرها من زمنٍ إلى آخر.

إن نظرية التطور تقوم على مرتكزين اثنين أساسيين، هما: الطفرة العشوائية القائمة على الصدفة والانتخاب الطبيعي الذي تقوم به الطبيعة من أجل انتقاء الطفرات الجينية الصالحة والتي تضمن بقاء النّوع وعدم فنائه، دون أي تدخلٍ خارجي ميتافيزيقي في تلك العملية التطورية، وهو ما أكده واضع النّظرية داروين، فالحياة ـ بزعمهم ـ أصلها كائن بسيط أحاديّ الخلية الذي أخذ بالنّشوء صعودًا من التبسيط إلى التعقيد متفرعًا عنه شجرة الحياة التي تضم كافة الأنواع الحية الموجودة على الأرض من نباتات وحيوانات، مع حصول طفرات جينية على مدار ملايين السنين والتي نتج عنها ظهور أنواعٍ من نوعٍ واحد يدعى «السلف المشترك»، إلّا أن تلك العملية الارتقائية التطورية التي نسجها دارون وتبعه عليها الملاحدة، ليس عليها أي دليلٍ أمبريقي ينهض لأن يكون برهانًا ساطعًا على صحة النّظرية؛ فإن النّظرية وإن لبست لبوس العلم فهي في حقيقتها نظرية فلسفية ميتافيزيقية لا تخضع

لشروط المذهب البوبري الذي أسس فيه صاحبه (كارل بوبر) لمعيارية علمية النّظرية من غيرها؛ إذ إن نظرية التطور لا تدخل في إطار التكذيب والتجريب، مما يجعلها تقترب إلى الفلسفة لا العلم، مهما حاول الدراونة نفي ذلك عنها، ومما يؤكد هذا المعنى قول عالم الإحاثة اللادري الشهير جاولد: «ولكن في منطقة واحدة ـ والتي لسوء الحظ تمثل جزءًا كبيرًا من النظرية والممارسة التطويرية ـ وهي الانتقاء الطبيعي كانت تعمل كالإله عند الأصوليين؛ حيث تفعل كل شيء، تساءل روديارد كيبلنج عن تنقيط جلد النمر وتجعيد جلد وحيد القرن، سمّى إجابته قصصًا من نوع «هذا ما حدث وحسب»، عندما يدرس التطوريون التكيفات الفردية، عندما يحاولون شرح الشكل والسلوك بإعادة بناء التاريخ وتقييم المنفعة الحالية فإنهم كذلك يقصون قصصًا من نوع «هذا ما حدث وحسب»، ويكون المسؤول هو الانتخاب الطبيعي، وهكذا تحل براعة التلفيق محل قابلية الاختبار كشرطٍ للقبول.. وهذا الذي أعطى التطور البيولوجي سمعةً سيئةً بين العلماء التجريبيين في سائر المجالات، ينبغي لنا أن ننتبه إلى ما يزعجهم ولا نرفضه بزعم أنهم لا يفهمون الانتخاب الطبيعي ولا الإجراءات الخاصة بالعلم الطبيعي التاريخي»[1]، لذلك

---

(١) كتاب وثوقية التوهم وخواء العدم، د. حساد الدين حامد/ط. مركز نماء، (ص١٤٧).

فإن النّظرية مهما حاول الترويج لعلميتها تبقى في صف الفلسفة كما بيّنّا وأسلفنا ذكره!

لقد تعرضت نظرية التطور للعديد من القصف العلمي الذي قوّض دعائمها وأوشكت فيه على الانهيار، لولا ما تشكّله تلك النّظرية من نبعٍ فلسفي عند المجامع العلمية الغربية، فمن معضلة الانفجار الكامبري والذي ظهرت فيه العديد من الكائنات بشكلٍ مباشر دون تطور مسبق، إلى اكتشاف الجينيوم المعقد، واكتشاف بعض الأعضاء المعقدة غير قابلة للاختزال وعدم وجود العدد الكافي من الحفريات التي تؤكد حدوث التطور مع افتقاد السجل الأحفوري للعديد من الحلقات المفقودة، وغيرها من الأدلة والنقودات التي وجهها غير واحد من العلماء الطبيعيين في كافة المجالات العلمية لنظرية التطور. بيد أن انهيار المنظومة الدينية الذي عصف بأوروبا عقب الثورة الفرنسية، والتصادم الذي شهدته أوروبا بين العلم والدين، وحالة النفور بين الكنيسة وكافة العلوم ـ سواء الطبيعة أو الإنسانية ـ جعل النّظرية بمثابة البديل الوحيد لتلك المنظومة المنهارة، لتخترق النظرية في مجالها التفسيري العديد من المجالات التي تندرج تحت إطار العلوم الإنسانية والتي لا تخضع للتجريب أصلًا، يقول الدكتور عبد الله الشهري مؤكدًا هذا المعنى: «ومن المهم... أن نؤكد على أن نظرية التطور في وضعها الراهن لم تعد

قاصرة على محاولة تفسير الجانب الحيوي العضوي الخالص للحياة، وإنما توسعت في نطاقها التفسيري حتى اخترقت حقولًا ذات استقلال وسيادة؛ كعلم الاجتماع والنفس والأعصاب والثقافة فأصبح لدينا الآن ما يُعرف بعلم الاجتماع التطوري والنفس التطوري والأعصاب التطوري وعلم الثقافة التطوري أو نظريات تطور الثقافات»[1]، لتضحى النّظرية اللاهوت الذي تكتسب منه الشرعية في كل المجالات العلمية الطبيعية والإنسانية على حدٍّ سواء.

إن نظرية التطور في شقّها العلمي المسمى بالتطور الصغير microevolution أو الذي يدعى بالتكييف «adaptation»، وهو ذلك التطور أو التكييف الذي يحدث في النّوع نفسه تبعًا لاختلاف البيئة والظروف الذي يعيشها الكائن الحي، مما يدفع لظهور تغيرات على الكائن مغايرة لما كان عليه، للتأقلم مع البيئة الحادثة الجديدة وذلك من خلال تفعيل بعض الجينات الموجودة في الحوض الجنيني «gene pool» للنّوع وأفول تأثير بعض الجينات في نفس النّوع دون حدوث طفرة في النّوع أو انتقاله إلى نوع من آخر، إن النظرية في هذا الشق لا يمكن معارضتها علميًّا، إلّا أن القفز الحكمي من هذا النموذج التطويري إلى النموذج التطويري

---

(١) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، ط. مركز نماء، (ص٤٥ ـ ٤٦).

الكبير المسمى بـ«macroevolution» دون أي دليلٍ علميٍّ يعتبر مصادرةً وسقوطًا علميًا وذلك بسبب الدوغمائية الإلحادية التي تستحل كل شيء لإثبات النظيرية حتّى لو كان استحلالًا للكذب، كما حصل في العديد من الحفريات التي تم تصديرها على أنّها سلف مشترك وهي في حقيقتها حفريات مركّبة من نوعين مختلفين من الكائنات!!

بعد هذا العرض الموجز المُختزل الذي وقفنا فيه على حقيقة نظرية التطور والتوظيف الإلحادي لها وأنّها العمود الفقري للإلحاد الحديث، كان لا بدَّ ختامًا أن نبيّن أمرين مهمين:

١ ـ إن ركني النّظرية الداروينية (العشوائية في الطفرات، والانتخاب الطبيعي) تعارض بداهةً التدخل الإلٰهي في نشوء الحياة، نافيةً أيّ تدخل غير التدخل الطبيعي في تلك العملية الارتقائية للحياة، وإن أكثر ما يمكن أن يقال في شأن الإلٰه ـ في حالة جعل دورٍ إلٰهيٍ في العملية تلك ـ أنّه إلٰه ناقص عاجزٌ يعبث وليس لديه القدرة حتى أن يخلق أنواعًا دون أن يحتاج لتوليد طفراتٍ عشوائية يكون منها ما ينقذ ذلك النّوع من الهلاك، يقول أبو الفداء بن مسعود: «وأمّا المذهب الثاني فحقيقته النسف التام لركني نظرية داروين اللذين قام عليهما القول بالتطور والأصل الموحد نفسه، مع التصريح ـ في نفس الوقت ـ بقبول تلك القصة التطورية البائسة التي

جاءت بها النظرية لظهور أنواع الحياة على الأرض (تأسيسًا على هذين الركنين)؛ كعقيدة إسلامية في «الكيفية التي خلق الله بها الخلق» على أنه خلق «متدرج»!... إذ يظنّ صاحبه ابتداء أن «كيفية أحداث الخلق الأول» يمكن الوقوف عليها من طريق العلم الطبيعي؛ فإذا ما تناول نظرية الطبيعيين في ذلك، وأراد أن يجرّدها من أصلها الإلحادي (الذي هو بعينه أصلها «الطبيعي» عندهم) لم يبق له منها إلا الدّعوى المجردة، ولم يخرج من ذلك إلا بالتنقص من صفات خالقه وهو يحسب أنه يتبع العلم الصحيح! فمن غير إثبات آلية الطفرة العشوائية على مفهومها الدارويني، وإثبات آلية الانتخاب الطبيعي على مفهومه الدارويني، فليس لشيء من تلك المشاهدات المادية التي يتعلق بها أصحاب التطور (كالحفريات وغيرها)؛ أي: قيمة إذا ما جُمع بعضها إلى بعض، ولا حقيقة إذن أصلًا لشيء اسمه «التطور» أو «الارتقاء»، ولا يبقى لذلك المسكين صاحب تلك العقيدة إلا اتّهام الرّبّ جلّ وعلا بخلق مخلوقات ناقصة معيبة كلّها، يكون الأصل فيها أن تهلك كلّها من سوء الصّنع والخلقة، حتى يبعث فيها بعد أزمان طويلة، «طفرات» مبعثرةِ هنا وهناك لزيادة عضو أو إضافة نظام حيوي كان ناقصًا من قبل؛ فيبقى منها ما «يرتقي» بما فيه الكفاية!»[١] لذلك فإنّ أيّ عملية توافقية بين النّظرية

---

(١) رسالة في تحذير المسلمين من فرقة «التطويريين» (دراونة أهل القبلة)/ منتدى التوحيد.

والدّين هي عمليةٌ تلفيقية تهدر نصوص الدين دلالتها وتجرد النّظرية من مضمونها الذي تأسست عليه.

٢ ـ إنّ نظرية التطور ما زالت في طور النّظرية ـ تنزلًا إلى قول المجامع العلمية ـ ولم ترتقِ بعد ولن ترتقي إلى منزلة الحقيقة العلمية، عدا عن أنّها ليست محلّ إجماعٍ علمي في الأوساط العلمية، لذلك فإن النّص الديني والذي يشكّل رافدًا أساسيًّا من روافد المعرفة وهو الخبر الصادق مقدمٌ على النّظرية حتّى ولو صارت محل إجماع؛ إذ إن العديد من النّظريات العلمية التي كانت محل إجماعٍ علمي أضحت في عداد الخرافات بعد زمنٍ من الإجماعٍ على صحتها، وسنسهب ـ إن شاء الله ـ في فصلٍ لاحق من البحث في مراتب الأدلة العلمية الطبيعية والأدلة الشرعية، وطريقة الجمع بينها، وأيّها أحقّ في التّقديم حال التعارض.

درء تعارض العلم الطبيعي والدّين الإسلامي

كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله ثراه ـ كتابًا مشهورًا كان كالشامة في جبين الإرث الإسلامي المعرفي أسماه: «درء تعارض العقل والنّقل». جاء الشيخ فيه على قواعد أهل الكلام الفلسفية التي يستدل بها القوم على منهجهم وقلبها عليهم حجةً له؛ إذ أثبت الشيخ في كتابه ألَّا تعارض بين صحيح المنقول اليقيني ثبوتًا ودلالة وبين العقلي الصحيح القطعي، رافعًا التناقض الذي قد يلوح للبعض بين العقل والنّقل ومؤسسًا لإطارٍ فلسفي يجمع فيه عقيدة أهل السُّنَّة؛ فأظهر الله الحق على مداد قلمه ونصر به السُّنَّة وقمع البدعة، والحمد لله ربِّ العالمين.

لقد جاء كتاب الشيخ في زمنٍ استشرت فيه المذاهب الكلامية الفلسفية والتي خالفت في آرائها نصوص الوحيين تحريفًا وردًّا على حساب آراء فلاسفة اليونان، والتي كانت

بمثابة السحر الذي غشي في تأثيره العقول فأصبحت لا ترى إلّا منطق أرسطو وغيره من إفرازات الحضارة اليونانية الغابرة. أمّا الآن وفي عصرٍ قد جلس فيه العلم الطبيعي على عرش القداسة، وأصبح لاهوتًا يسترشد به كل من ضلَّ الطريق، جاء قومٌ فامتطوا العلم وألبسوه لبوس الفلسفة ـ وإن زعموا خلاف ذلك ـ وجعلوه المصدر المعرفي الأول بل الوحيد لهم، وطفقوا يفسرون كل شيءٍ في ضوء هذا العلم، حتّى أدخلوه نطاقًا تفسيريًّا غير نطاقه وولج في مجالاتٍ ليست هي مجاله، إلى أن تبلور جراء ذلك مدرسةٌ أطلق عليها اسم «الوضعية المنطقية» تلك المدرسة التي لا ترى مسلكًا للمعرفة إلّا المسلك الإمبريقي.

مما لا شكَّ فيه أن التجريب يعتبر مصدرًا ابستميًّا رئيسيًّا تتحقق منه المعرفة والذي تشكّل الحواس أدواته الأساسية، إلّا أن ذلك المصدر له نطاقٌ معرفي يعمل فيه لا غير، ولا ينبغي أن يوسع ذلك النطاق ملتهمًا مناطق غير مناطقه التي يعمل فيها؛ إذ إن حصر المعرفة على ذلك المصدر ما هو إلّا تحكّم وخرصٌ دون دليل، وإلّا فإن مصادر المعرفة ليست مقتصرة على مصدرٍ واحد محدد إنّما هي متنوعة متعددة، يقول شيخ الإسلام: «وطرق العلم ثلاثة: الحس والعقل والمركب منهما كالخبر» فالعقل والخبر الصحيح مصدران تتحقق من خلالهما المعرفة كذلك، وليس

الأمر مقتصرًا على الحس كما يزعمون. وإن الدّين الإسلامي والذي تشكل نصوص الوحيين أركانه، يعتبر عندنا مصدرًا من مصادر المعرفة، مصدرًا جاء مركبًا من العقل والخبر؛ إذ إن الإسلام هو الدين الصحيح الباقي دون تحريف، وهو الدّين القائم على حجج وبراهين عقلية، شكّلت في مجموعها دليلًا على صحة هذا الدّين لكل باحثٍ عن الحق والصواب؛ لذا فإننا جعلنا حديثنا في هذا الفصل على نفي التعارض «المتوهم» بين العلم الطبيعي ودين الإسلام فقط، لاعتقادنا أنّه هو الدّين الصحيح المنزل من الله (الحق المطلق) وأن ما دونه من أديان هي أديانٌ باطلة، ولا نسلم عدم حصول التعارض بينها وبين مخرجات العلم الطبيعي؛ بل إن الواقع يثبت أن التعارض حاصل بين هذه الأديان والعلم!!

إن فض الاشتباك الحاصل بين العلم الطبيعي والدّين، سواء كان ذلك الاشتباك حقيقيًا أو توهمًا في عقول البعض، وقبل التحدث عن ذلك الاشتباك الحاصل، لا بد أن نقرر أصلًا مهمًّا وهو: أنّه يجب على من يتصدّر لمثل هذا الشأن أن يكون ملمًّا بنظّريات العلم الطبيعي واقفًا على حيثياتها وتفاصيلها، وأن يكون في الوقت نفسه عالمًا بنصوص الوحي مدركًا لدلالتها على الوجه الصحيح؛ إذ إن عدم الإلمام بكلا المجالين يولّد قولًا مشوّهًا، وإن حسب صاحبه أنّه معافًى يوافق الحق، ومن أدل الأمثلة ـ على فساد الجمع بين الدين

ونظرية من نظريات العلم الطبيعي ـ مثال القول بالتطور الموجه، والذي يعتقد القائلون به أنّهم فضوا الاشتباك الحاصل بين نظرية التطور ورواية الخلق الدينية، علمًا أن التطور والدّين لا يقر ذلك القول بتاتًا فوقف القائل به بين الروايتين لا هو إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهذا يدل على أن قائله لم يفهم كلا الأمرين ـ أعني: نظرية التطور ونصوص الوحي ـ هذا بالإضافة إلى أن المتصدِّر لهذا الشأن يجب أن يكون عالمًا بمراتب الأدلة وأي مدى من الصحة والأحقية تحمله، بحيث إنّه إذا عُدل إلى الترجيح حال فشل الجمع بينها أن يكون على معرفة بالدليل الذي له أحقية التقديم على الآخر، فلا يقدم الظني على القطعي ولا ينكر على من خالفه فيما تصح في المخالفة وغيرها من الأمور التي قد تقع بفعل الجهل بمراتب الأدلة سواء العلمية أو الشرعية.

ليُعلم أن مراتب النّصوص الشرعية تنقسم إلى أربعة أقسام: نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة ونصوص قطعية الثبوت ظنية الدلالة ونصوص ظنية الدلالة قطعية الثبوت وأخيرًا نصوص ظنية الثبوت ظنية الدلالة، ويكاد الأمر أن يكون نفسه في أدلة العلم الطبيعي. وإن فض الاشتباك الحاصل بين العلم والدّين لا بد أن يكون من خلال عدة أمور سنذكرها على سبيل الإيجاز لا الإسهاب؛ إذ إن ليس غايتنا أن نبسط القول عن هذه القضية في هذا البحث القصير

وإلّا فإن مثل هذه القضية تحتاج أسفارًا عظيمة تتناول مثل هذه القضية تناولًا عميقًا يرفع الإشكال ويزيل الغبش ويحق الحق، وتلك الأمور أدرجناها كالتالي:

١ ـ يجب أن يتحقق التعارض بين الأدلة تحققًا يقينيًّا، وليس مجرد توهم محله سوء فهمٍ سواء كان سوء الفهم للدليل الطبيعي أو الدليل الدّيني.

٢ ـ لا يمكن أن يتعارض دليلٌ علميٌّ قطعي الدلالة مع نصٍّ ديني قطعي الدلالة والثبوت؛ إذ إن الحق الكوني اليقيني والحق الديني اليقيني خارجٌ من مشكاة واحدة مشكاة الحق، فالله الذي خلق الكون وأوضع فيه قوانين وبثَّ فيه من آيات منظورة دلالةً على عظيم خلقه من المحال أن يصدر منه أو من نبيِّه قولًا يخالف ذلك الكتاب المنظور (المنظور) الذي خلقه.

٣ ـ في حالة تعارض قطعي مع ظني الدلالة يقدم القطعي من أي طرفٍ كان، ومثل تعارض نظرية التطور «الظنية» مع قصة خلق آدم قطعية الدلالة وقطعية الثبوت.

٤ ـ في حالة تعارض ظني مع ظني من كلا الطرفين، لا فرق من تقديم قولٍ على آخر إلّا أنّه ربما يتحتم أن نقدم ظني على آخر في حالاتٍ معينة.

هذا، وإننا كما ذكرنا فإن الأمر يحتاج إلى استفاضة في

الشرح والتفصيل والتفريع؛ فإن مثل هذه القضايا لا يتجشم عناء الخوض فيها إلَّا الفحول الأفذاذ من أهل العلم، وقد كان كلامنا فيها من باب بيان عدم حصول التناقض بين العلم والدّين ـ والذي يروج له الملاحدة في كل نادٍ ومجلس ومجموعة فيسبوكية ـ واضعين بعض الأسس التي ينبغي لأي مسلم أن يستند عليها في انطلاقه لفضِّ ذلك الاشتباك، الذي في أغلبه اشتباكٌ متوهم لا وجود له إلّا عند الأغمار الجهّال من النّاس، الذين لا شغل لهم إلّا الطعن في الدّين وتأليه العلم، ودعوى أنّه الحق وغيره ضلال، في حين أنك تجد مرتبة الواحد منهم «العلمية» هي المرتبة الأخيرة في المدرسة والجامعة إلّا من رحم ربي وقليلٌ ما هم!

هل قتل العلم الإيمان بوجود الله؟!

بهذا الاستفهام نفتتح هذا الفصل.

من القضايا التي يجلس خلف ستارها الملاحدة، قضية التعويل على العلم الطبيعي في إنكار وجود خالق، ومن أشهر مقولاتهم: «لقد بحثنا عن الله في المختبرات والمعامل ولم نجده».

بات من الواضح في الآونة الاخيرة، أن إحراز العلم لأي تقدم هو عندهم بمثابة ضربة تهتز لها عروش الدين.

وقد صرّح بذلك غير واحد من رءوس الإلحاد في العالم، أمثال ريتشارد دوكينز وغيره.

منشأ هذا الادعاء هو الاعتقاد بأن الإيمان بوجود خالق لا يقوم على أي دليل، وبالوقت ذاته حصر الاستدلال بمعطيات العلم الطبيعي.

وكما قال بيتر اتكينز: «يستحيل مصالحة العلم

والدين». وفق ما ذكره عالم الرياضيات جون لينوكس في كتابه: «العلم ووجود الله».

منطوق تصريحاتهم أن العلم والدين في حرب شرسة، لا سلام فيها، ولا نهاية لها إلا ببقاء أحدهما وموت الآخر، والحقيقة خلاف ذلك؛ إذ الصواب أن يُقال: إن بعض حاملي العلم في حرب مع الدين، لا العلم في حرب مع الدين، فلا تلازم بين عقيدة الإنسان وبين ما يحمله من علم أو فن أو غير ذلك، فلو قلنا مثلًا: إن فلان الفنان الشهير ملحد، فهل هذا يعني أن الفن في صراع وعداء مع الله؟! لا يقول بذلك عاقل.

وكذا الأمر يندرج على كل أشكال العلوم والفنون، هب أن العالم الجغرافي الفلاني ملحد، هل يصح القول: إن علم الجغرافيا في تضاد مع وجود الخالق؟! بالطبع لا، وكما أن هناك جغرافيين أو فنانين يدينون بالإلحاد، كذا منهم من يدين بالإيمان والإقرار بوجود خالق، وكذا الحال في العلم الطبيعي، فكما أن هناك علماء فيزياء ورياضيات وكيمياء... إلخ يعتقدون بعدم وجود خالق؛ فإن منهم أيضًا من يعتقد بوجوده.

وعليه؛ فالصحيح ألّا تلازم ولا ترابط بين ما يحمل الفرد من علوم على اختلاف أشكالها وبين العقيدة التي يعتقد

بها في قرارة نفسه، والأدلة التي يبني عليها المؤمن إيمانه متنوعة وكثيرة، ليس هنا محل بسطها، بينما تعليق الإلحاد على شماعة العلم ادعاء لا تقوم به حجة.

وبناء على ما تقدم، فمن المهم لفت الأنظار إلى ضرورة الفصل بين اعتقادات العلماء الشخصية وتصريحاتهم وبين العلم الطبيعي بصورته المجردة.

معنى ذلك: ألّا نتعامل مع تصريحاتهم وكأنها مرجعية علمية، وإنما علينا تجاهها أن نسير على أصول قواعد الاستدلال والخطأ فيها.

من حيث كونها مجرد ادعاءات دون أدلة، بالإضافة إلى أهمية تحديد الفئة التي تنتمي إليها، ومدى صحتها إن كانت أدلة، وهل من تلازم بين الأدلة ومدلولاتها، إلى غير ذلك من قواعد الاستدلال.

وكما أشرنا بالأعلى في بيان الفصل بين اعتقاد العالم وبين العلم بذاته، ندعم هذه الفكرة بذكر علماء بارزين يعتقدون بوجود خالق؛ كالسير جون هوتن وغيره؛ حيث ينسبون بصريح العبارة العلم إلى الله. وقد أشار إلى ذلك جون لينوكس في المرجع السابق.

طبعًا، لا يمكننا نسبة أقوالهم الى العلم، وإنما حسبنا القول بأنها اعتقاد شخصي، وإلا فلا مدخل للعلم التجريبي

في الكشف عن الخالق، وإنما هو أداة تكشف لنا عن مظاهر الخلق والإيجاد والإبداع والإتقان، الأمر الذي يأخذ بنا إلى شق الاستدلال العقلي على وجود صانع حكيم خبير.

الذي أردناه من جلب علماء يقرون بوجود خالق، هو بالدرجة الأولى لتسليط الضوء على إشكالية مثيرة، ألا وهي أن هناك علماء طبيعة يصدحون بأن العلم قضى على الله، أو كما قال نيتشه أن الله مات وأن العلم دفنه. وعلماء آخرون يؤكدون أن العلم منبع إيمانهم بالله ومصدر إلهامهم.

فنحن الآن أمام فسطاطين من العلماء على نفس الدرجة العلمية، أحدهم منكر والآخر مؤمن! ماذا يستنتج عاقل من هذا التقديم؟!

بعد ذا، أيقول قائل بأن العلم والايمان نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان؟!

لا، وإلا فهي سذاجة أو لِنَقُلْ إقحام العلم في المنتصف محض مراوغة، فها هي ثلة من عمالقة العلماء، أمثال باسكال ونيوتن وفاراداي ومندل وكلفن - والتي يُعزى لها الفضل في وضع حجر الأساس - تؤمن بوجود خالق، ولم يشكل إيمانها مطلقًا عثرة في طريق العلم ومكتشفاته؛ فأنى للملاحدة أن يتبجحوا بإطلاق القول: إما علم وإما إلٰه؟! ولو سلمنا جدلًا أن للعلم في ذلك أي الإلحاد

والإيمان، قدمًا أو ساقًا؛ فأي الفريقين نؤيد؟ الإيمان أم الإلحاد!! والتأييد على ماذا سيبنى؟!

وفي صدد الحديث عن العلوم الطبيعية، لا بدَّ من التعريج إلى مسألة جعل العلم التجريبي المصدر الوحيد للمعرفة.

وكما قال برتراند راسل في كتابه: «الدين والعلم»:

«كل ما يمكن التوصل إليه من معرفة، لا بدَّ أن نتوصل إليه بطرق علمية، وما لا يمكن للعلم اكتشافه، لا يمكن للبشرية أن تعرفه».

من طريف بيان هشاشة هذا الادعاء، تعليق عالم الرياضيات جون لينوكس عليه، في كتابه: «العلم ووجود الله»؛ حيث قال:

«الادعاء القائل بأن العلم وحده هو الذي يزودنا بالمعرفة يُعتبر واحدًا من الادعاءات التي تدحض نفسها بنفسها، التي يحلو لبعض المناطقة أمثال برتراند راسل الإشارة إليها. ولكن المدهش أن راسل نفسه انضم لهذا الموقف عندما يقول: «كل ما يمكن التوصل إليه من معرفة، لا بد أن نتوصل إليه بطرق علمية، وما لا يمكن للعلم اكتشافه، لا يمكن للبشرية أن تعرفه». ولكي نكتشف التناقض في هذه العبارة، ليس علينا سوى أن نسأل: كيف عرف

راسل ذلك؟ وذلك لأن عبارته نفسها ليست عبارة علمية، فإن كانت صحيحة، إذن لا سبيل إلى معرفتها، ومع ذلك فهو يؤمن أنها صحيحة». اهـ.

وفي بيان محدودية العلم يضرب لنا جون لينوكس في المرجع السابق مثالًا بسيطًا يوضح ذلك؛ حيث قال:

«فلنتخيل أن خالتي ماتليدا خبزت كعكة جميلة وأننا أخذناها لمجموعة من أعظم علماء العالم لتحليلها. وباعتباري مغرمًا باتباع الإجراءات والقواعد، طلبت منهم شرحًا للكعكة، فانصرفوا جميعًا إلى العمل. علماء التغذية سيخبروننا بعدد السعرات الحرارية التي تحتويها الكعكة وأثرها الغذائي. وعلماء الكيمياء الحيوية سيخبروننا بتركيب البروتينات، والدهون، وغيرهما من العناصر التي تحتوي عليها الكعكة. والكيميائيون سيتحدثون عن العناصر المكونة للكعكة وروابطها الكيميائية، والفيزيائيون سيتمكنون من تحليل الجسيمات الأولية للكعكة، وعلماء الرياضيات سيقدمون لنا طبعًا مجموعة من المعادلات العبقرية التي تصف سلوك تلك الجسيمات. والآن بعد أن قدَّم لنا هؤلاء وصفًا شاملًا للكعكة، كلٌّ حسب تخصصه العلمي، هل يمكننا أن نقول: إنه أصبح لدينا شرح كامل للكعكة؟

المؤكد أننا حصلنا على وصف كيفية صنع الكعكة

وكيفية اتصال عناصرها المتنوعة بعضها ببعض، ولكن هب أني سألت هذه المجموعة من الخبراء سؤالًا أخيرًا: لماذا صُنعت الكعكة؟ ستكشف الابتسامة العريضة على وجه الخالة ماتيلدا أنها تعرف الإجابة لأنها هي من صنعت الكعكة، وقد صنعتها لغرض. ولكن كل علماء العالم في التغذية والكيمياء الحيوية، والكيمياء، والفيزياء والرياضيات لن يتمكنوا من إجابة السؤال، والاعتراف بعجزهم عن الإجابة لا يقلل من شأن علومهم. فتخصصاتهم التي يمكنها التعامل مع الأسئلة المتعلقة بطبيعة الكعكة وتركيبها؛ أي: التي تجيب عن أسئلة «كيف» لا يمكنها أن تجيب عن أسئلة «لماذا» التي تتناول غرض صُنْع الكعكة.

والحقيقة أن السبيل الوحيد للحصول على إجابة هو الخالة ماتيلدا نفسها. ولكنها إن لم تفصح عن الإجابة؛ فالحقيقة الأكيدة أنه لا يمكن لأي قدر من التحليل العلمي أن ينير لنا هذه المساحة. ولكن أن نقول مثل برتراند راسل: إنه ما دام العلم لا يستطيع أن يخبرنا بالسبب الذي دعا الخالة ماتيلدا إلى صنع الكعكة، فلا يمكننا أن نعرف لماذا صنعتها هو خطأ بَيِّن؛ لأن كل ما علينا أن نسألها؛ فالزعم القائل بأن العلم هو الطريق الوحيد للحق زعم ليس جديرًا بالعلم نفسه. ويشير السير بيتر مداوار الحائز على جائزة نوبل إلى هذه الفكرة في كتابه «نصائح لعالم شاب»؛ حيث يقول:

«أسرع وسيلة يسيء بها العالم إلى سمعته ومهنته أن يصرح بكل جرأة، أن العلم يعرف أو سيعرف قريبًا إجابات كل الأسئلة التي تستحق أن تُسأل، وأن الأسئلة التي لا تعترف بالإجابة العلمية إما ليست أسئلة أو أسئلة زائفة» ويستطرد مداوار قائلًا: «إلا أن محدودية العلم تتضح في عجزه عن إجابة الأسئلة البدائية الطفولية التي تتعلق بالأشياء الأولى والأخيرة، مثل: كيف بدأ كل شيء؟ ما غرض وجودنا؟ ما مغزى الحياة؟» ويضيف قائلًا: «إننا إذا أردنا إجابات عن مثل هذه الأسئلة، علينا أن نلجأ للأدب الخيالي وللدين».

ويؤكد هذه الفكرة فرانسيس كولينز مدير مشروع الجينوم بقوله في كتابه «لغة الله»:

«العلم عاجز عن إجابة بعض الأسئلة مثل: لماذا أتى الكون إلى الوجود؟ ما معنى الوجود البشري؟ ماذا يحدث بعد الموت؟»

ومن هنا يتضح أنه لا تناقض في أن يكون المرء عالمًا على أعلى مستوى، ملتزمًا بعلمه شغوفًا به، ويدرك في الوقت نفسه أن العلم لا يستطيع الإجابة على كل أنواع الأسئلة، بما فيها بعضٌ من أعمق الأسئلة التي يمكن للبشر أن يسألوها». اهـ.

ولا شكَّ هذه كبير مشكلة تضرب بُعدًا عميقًا في الطرح الإلحادي، وعلاوة على ذلك، فإنها أيضًا مناقضة لواقع التنوع في المجالات العلمية، بالإضافة إلى أنها مجرد دعوى دون دليل، والدعوى دون دليل تقابلها كذلك مئات الدعاوى دون أدلة، وهب لو أنها كانت صحيحة سليمة؛ فإنها تأخذ بنا إلى إنكار كافة العلوم الإنسانية؛ إذ لا مدخل لمنهجية العلم الطبيعي في الحكم عليها واختبارها، هي خارج المختبر، ولا تخضع له وفق خصائصها، فلو أن المنهج التجريبي فعلًا هو المصدر الوحيد للمعرفة، كيف لنا من خلاله أن نحكم على الأعمال الأدبية والفنية؟ كيف له أن يقول بالعمل الأدبي الفلاني عمل رديء أو جيد؟

وماذا عن المنظومة الأخلاقية؟! كيف له أن يحكم بأن هذا سلوك قبيح وهذا حسن؟!

هذا ظلم وهذا عدل؟

العلم يخبرك بأن إطلاق الرصاصة على القلب تؤدي إلى الموت، لكنه لا يخبرك هل إطلاقها صحيح أخلاقيًّا؟

العلم يخبرك بأن ثقب طبلة الأذن يؤدي إلى فقدان السمع، لكنه لا يخبرك بأن ممارسة هذا الفعل بحق الآخرين صحيح أم خاطئ.

وغير ذلك الكثير من الأمثلة، التي تظهر لنا مدى ضيق

اعتماد المنهج الأمبريقي كمصدر وحيد للمعرفة، وما يترتب عليها من إلزامات فاسدة.

وأخيرًا قبل آخر حول الحديث عن المنهج الأمبريقي أو التجريبي واقتصار إمكان المعرفة عليه، رغم ضيقه ورغم ما يترتب عليه من لوازم فاسدة كإنكار العلوم الإنسانية وغيرها، لو سلمنا جدلًا أنه فعلًا المصدر الوحيد للمعرفة؛ فإن ذلك يوقع مُنَظِّرِيه في تناقض؛ فالذي يدعي بأن المنهج التجريبي المصدر الوحيد للمعرفة، كيف له أن يثبت صحة دعواه من خلال المنهج نفسه؟!

فهي دعوى لا ارتباط لها بالعلم في وجه من الوجوه، فكيف سيتم البرهنة عليها من خلال المذهب العلمي؟

هذا غير ممكن، وهو ما أشرنا إليه سابقًا في تعليق جون لينوكس على برتراند راسل، كما سيأتينا مزيد من الإيضاح في قول الدكتور عبد الله العجيري، ورغم ذلك هم يعتقدون بصحة هذا الادعاء، دون إقامة أي برهان عليه وفق منهجهم، وهذا تناقض صريح، والتناقض لا يداخل طرحًا إلا وأفسده، وصدع قواعده فخر عليها السقف.

وفي كشف اللثام عن هذه المعضلة، يقول الدكتور عبد الله العجيري في كتابه «شموع النهار»:

«المشكلة في التعاطي التحقيري مع الموارد المعرفية

الأخرى، ومحاولة حصر المجال المعرفي بتفاصيله وتعقيداته وتبايناته في هذا المورد وحده دون ما سواه، وهي إشكالية منهجية تفضي إلى إشكاليات علمية ضخمة لا تخفى، فصحة المنهج التجريبي الذي تتأسس عليها النظرة العلموية إما أن يكون مدركًا بطريقه أو بطريق خارج عنه؛ فإذا كان إدراكنا لصحة هذا المنهج هو بذات المنهج فهو دور باطل، وهو يحمل في طياته تناقضًا داخليًّا، إذ لا يصح أن تجعل الدعوى موردًا للاستدلال لها أو عليها، أما إذا كانت صحة هذا المنهج مدركة بأمر خارج عنه فقد حصل المقصود بإمكان تحصيل المعرفة بهذا الخارج، وهو ما يدخل في مجالنا المعرفي ضرورة موردًا معرفيًّا آخر ليس من طبيعة ذلك المورد». اهـ.

ومن ثم أتبع قائلًا:

«إن هذه النزعة المغالية في المعارف الطبيعية شبيهة بحال رجل يخرج بجهاز كشف عن المعادن لأحد الشواطئ أملًا في العثور على خاتم أو قرط أو قطعة مجوهرات ضائعة، تخيل أنك قابلت هذا الشخص فحدثك أنه طيلة سنوات بحثه بهذا الجهاز لم يجد قطعة بلاستيك واحدة، وأنه يعتقد أنه لا وجود لأي مادة بلاستيكية في هذا الشاطئ كله. تريد أن تنبهه إلى أن الجهاز إنما يكشف المعادن فقط، فيقاطعك قبل التنبيه قائلًا: بل أظن أنه لا وجود للبلاستيك

أصلًا فإن هذا الجهاز لم يكشف لي عن قطعة واحدة منه يومًا. لا تستطيع أن تمنع نفسك من التبسم وأنت ترى أن من مكونات الجهاز الذي يحمله أجزاء بلاستيكية». انتهى من نفس المرجع.

خلاصة هذا العرض، وإفراده في فصل من بحثنا، لبيان وإظهار أن المنهج الأمبريقي[1] له مجاله وله حدوده، فهو يعمل ضمن إطار الظواهر الطبيعية، وإخراجه منها إلى غيرها، كمن يخرج السمكة من الماء إلى اليابس، أو كحال الْحِرَفِي يتكلم في مسائل الطب، وعليه فإخراج العلم من سياقه وتحميله ما لا يحتمل، لا يعدو أن يكون محض دوغمائية، في سبيل إشباع نزوات وأهواء شخصية.

---

(١) الأمبريقي أو الفلسفة الإمبريقية = التجريبية: (هي توجه **فلسفي** يؤمن بأن كامل المعرفة الإنسانية تأتي بشكل رئيسي عن طريق الحواس والخبرة. تنكر التجريبية وجود أية أفكار فطرية عند الإنسان أو أي معرفة سابقة للخبرة العملية. (المؤلف) (ويكيبيديا)

خاتمة

اجتاحت العالم العربي في الآونة الأخيرة موجة تشكيكية لم يسبق لها مثيل، إذ كانت بمثابة الطوفان في قلبها لعقول الناشئة من شبابنا رأسًا على عقب إزاء معتقدهم وإيمانهم.

وإلى هؤلاء من الشباب، اللائي هبت ريح التشكيك على قلوبهم وعقولهم؛ فعصفت بمكانة الدين في نفوسهم، ليقفوا على الحق من بين ركام الباطل، كتبنا هذا البحث.

فبعد أن تعرضنا لأهم النظريات العلمية التي خضعت للحقن الإيديولوجي الإلحادي بالعرض والنقد مع إلحاقنا البحث بفصلين مهمين، تناولنا فيهما سؤال «هل قتل العلم الإيمان بالله؟» بالإضافة إلى «نفي التعارض بين العلم ودين الإسلام»، إننا لنؤكد أن العلم الطبيعي التجريبي مهما بلغ شأنه، وعلا كعبه؛ فإنه لن يكون دليلًا على إنكار الخالق، إذ لا تلازم بين الأمرين كما أسلفنا.

وما تناولناه أيضًا في هذا البحث من علاقة بين العلم والإيمان، والأدلجة التي يخضع لها في سبيل الإغواء والإضلال، وما ترتب عليه من شروخ عميقة في وعي هذا الجيل، هو في الحقيقة أحد هذه الموجات التي ضربت جذورًا في عقول فتياننا وفتياتنا، فجعلت من نفوسهم ملاذًا ومسكنًا للشك، الأمر الذي دفعنا إلى أن نجتهد في هذا البحث الموجز بالتنقيب عن العلاقة الرابطة بين العلم والإيمان، لِنُزِيلَ الغبش الذي ران على القلوب، والظلام الذي حجب الأبصار عن رؤية النور، والباطل الذي خيم على العقول فحال بينها وبين معرفة الحق، ولله الحمد والمنّة، فقد وفقنا الله إلى إظهار تهافتها وتساقط الادعاء بها، ونحسب هذا البحث صمام أمان يحفظ القارئ من الانزلاق في هذا المستنقع من المكر والبهتان.

وأمام مساعي خلق تعارض بين العلم والدين، قد سلَّطنا الضوء في أحد فصول هذا البحث، على درء التعارض بينهما، وعلى وجه الخصوص الإسلام دون غيره؛ لأنه دين الحق، وما سواه من الأديان داخلها التحريف والتزوير. ومهما حاولوا إقامة البنيان بين العلم والدين، فإن راية الإسلام ستظل شامخة، خَفّاقة، تلوح في الآفاق؛ فالإسلام دين العلم، وأول كلمة نزلت من كتابه العظيم كانت (اقْرَأ).

هذا الدين لا تفزعه هَرْطَقَاتُ الملاحدة، ولا تقضّ

مضاجعه رياح التشكيك اللاتي يثيرونها، فما من ركن من أركانه، ولا ركيزة من ركائزه، إلا وقامت بالحجة والبرهان، فهو الحق الذي أحرق كل حجج.

ومن يقف على ثغر من ثغوره، يتحتم عليه أن يكون قوي العقل، صلب الحجة، عالمًا بأطروحاتهم التشكيكية، ليحسن الرد، فيقوض بنيانهم وينخر قواعدهم، كما تنخر السوس الخشب.

هذه الحملات التي تشربتها عقول شبابنا، حملات ماكرة، ما تلبث أن تذهب أدراج الرياح أمام عواصف الحق، ومهما راجت بضاعتهم، سيظل هذا الدين باقٍ لا يزول، وعلى أتباعه أن يبصروا موضع الحقيقة؛ فإما حياة تُكَرّس لخدمته، وصبر على مغارم الكفاح أمام ما يثار إزاءه من إغواء وإضلال، وإما انقلاب على الأعقاب مُهلِك.

هذا، وإن قدّر الله لك والتقيت بملحدٍ معاندٍ، يثير الغبار على مسلَّمات الدّين، ويشكك في أصوله، ينادي: «من للنزال من للنزال؟ فإنّه لا إلٰه، وبيننا وبينكم الميدان!» وقد رأيت النّاس قد أحجمت والجموع قد تولت والكل قال: نفسي نفسي فمن ذا الذي يستطيع أن ينازل «مثقفًا ملحدًا»؟! فإيّاك إيّاك أن تولي الأدبار، فانزل إلى الميدان، وارفع راية الإسلام، وتترس بالقرآن والسُّنَّة، وسلَّ سيف حجتك

وبيانك، واركب جواد الدليل؛ فاستأصل الوساوس من عقله، واقطع دابر قوله، وقف على رماد حجته مرددًا صادحًا: «بل هو الله؛ بل هو الله»، وإنّه لنزال، إيمان أو إيمان، والحمد لله ربِّ العالمين.